

الفصل الثالث عشر

مطالع السيرة:

في هذا الفصل سنسرد الأحداث التي سبقت ولادة صاحب هذه السيرة، ونبين ما جرى في تلك الحقبة من ارهاصات، نشأ يرحمه الله وهو يسمع من والديه والقراية أنباء متفرقة عنها، كان يقوم بتمحيصها واستبعاد ما لا يراه لائقاً، فلا يتحدث به لكنه لا يعترض على من يتكلمون في بعض تفاصيلها، وقد سمعت بعض من ذلك في مجلسه. ومع ذلك فلا بد من التنويه ان كثيراً مما سيرد هنا، ما زال مصدره عمه زيد بن عبدالله، الذي نعرف جيداً انه يسرده من مرئياته وسماعه، والبعض منه نقله عن جده علي بن حمد، العارف المجاهد الحافظ والمخلص، وأكرر هنا ما سبق ذكره في المقدمة، عن أن كافة ما يرد في هذا المخطوط هو آراء أو مسموعات، وليست حقائق موثقة أو مؤكدة. إنني بعد ذلك لم أتأكد ما إذا كان الجد علي، قد نقل الانباء عن جيرانه أو رفاقه أو أسلافه، سواء رشيد بن محمد بن فواز أو مناحي بن إبراهيم، وصولاً إلى سعد الجبري السبيعي الذي يكنى "خثلان" بعد مشاركته البطولية في مقاتلة الطاغية البرتغالي البكيرك، لما غزا سواحل اليمامة الشرقية في القرن العاشر الهجري، الذي سردنا نبذة عنه في فصل سابق. وكيف كان مع رفاقه يغوصون قرب الساحل، وعندما تقترب منهم الزوارق الصغيرة المحملة بعساكر الصليب، المتجهين من السفن الشراعية الضخمة نحو البر، فيجتمع نفر من المجاهدين سواء من اليمامة أو الشارقة والقطيف، ويقلبون الزورق بينما يقوم الجبري وثلاثة من صحبه بخنل بطونهم بالشفرات المعقوفة الحادة، فتنسكب أمعائهم في الماء المالح، وتندفع نحوهم أسماك الجرجور أو الأصغر منها فتلتهمهم في طرفة عين. وكما سبق ان ذكرنا فإن إبراهيم بن سعد كان مقيماً وولد في نعام، بينما كان أسلافه ينتقلون في أراضي سبيع، الممتدة من الحاير إلى محمدي الدلم والفرع والأفلاج. وقد شارك مع بقية السبعان في تهيئة أرض الحريق، نحو عام؟؟؟؟؟؟؟؟ هـ لتكون منفى لمن لجاء إلى نعام آنذاك، هارباً من سدير بجنايته، لكن لما اشتبه في غدره بقواودة (قادة) الوادي، عند قدوم الشريف تقرر نفيه مع عياله، ثم نفي إلى هناك أيضاً نفر من الموالي الأبقين من سادتهم، وبعدها بسنوات بنى بعض ذريته مساكن لهم قرب زراعاتهم في الحريق. وحيث اننا في هذا الجزء اقتربنا من نهاية سيرة سلف صاحب السيرة، فسأجيب في هذا الفصل عن العديد من تساؤلات الأحبة "عن الخلف" وتجاربهم. وسأضع هنا نبذ عما مر على بعض ذرية صاحب السيرة، ليس بقصد كسر رتابة التسلسل الزمني فقط، لكن بقصد تقديم ارهاصات عما حدث لهم في حياته، أو بعد انتقاله لرحاب الغفور الرحيم، وكلني أمل ان يكون فيما اخترته من أحداث وتعليقات، شيء من العبرة والعظة تفيد في تنوير معالم الطريق نحو الرشاد.

غادر العم زيد الفيوم عائداً للمطرية منتصف تلك السنة 1258 (هـ) حيث استقبل قافلة عاد بها أحد عماله، وكعادتهم الكريهة لم ينتظروا حتى يتفحص بضاعته، بل سارعوا لمبادرته بأنباء أهله وبلدته. كان أهمها تردي صحة جده العظيم علي بن حمد، ونشوء مزيد من الفتن بين بعض أهل الحريق، أما والده وبقية القرابة فهم في خير حال. لكن ما كدر خاطره هو عزم أحد أعمامه الخروج مع القافلة، ببضاعة هزيلة لا تستحق نفقات السفر بها، ولما وصلوا الوشم ظهرت عليه بوادر التعب، ثم في المذنب خارت قواه عن المسير، وقرر العودة للحريق فلما عرض بضاعته لم يقبلها أحد، فقرر بيعها بثمن بخس لقائد الركاب، وخمن أحدهم أنه سيقول لأهله أنه حصل على ربح مجزي، قبل ان يصل إلى مصر حيث يعرف عنه المكر والتحايل بمعسول الكلام. ومن أنباء الحاكم الجديد ابن ثنيان تغيير حاله، فبعد ان سيطر على نجد في أعقاب فرار الأمير خالد، انقلب على من عاونوه للوصول لقصر الحكم. ومن بين أولئك بعض أعيان قبيلة سبيع، الذين توسموا فيه الخير حيث كان يدعوا إلى إخراج عساكر مصر من البلاد، وأنه لن يقبل التحالف معهم أو تلقي أي توجيهات منهم، لكنه غير حاله وغدا يستعين بهم لزيادة نفوذه، وقد أرسل لوالي مصر لعقد اتفاق تعاون معه. ثم زاد على ذلك السوء بانتهاج سياسة الغدر ضد حلفاء الأمس، فبعد خلافه مع السبعان توجه لمشاكسة بعض كبار قادة مطير وعتيبة، وفرض عليهم غرامات مالية وعينية باهظة، فصادر أملاك البعض وسجن آخرين ونكل بغيرهم. لكن العم زيد لم يطمئن لتلك الرواية، فإن قيام الثنيان بطرد العساكر الأجانب سواء من المسلمين أو النصارى، يراه عمل مجيد حتى وإن كلف ذلك الإساءة لبعض العشائر.

في اليوم التالي جاءه أحد العمال على استحياء، وأخبره انه أثناء مدة غيابه شعر بالضجر، ولم تكن لديه أعمال حراسة ونظافة كثيرة، والتقى مصادفة مع شخص مصري عرض عليه العمل معهم بالمياومة. وقبل بذلك بدون استئذانه حيث لا اتصال معه، وكان يتقاضى كل يوم قروش نحاسية مصرية، وقدم صرة فيها كمية من تلك النقود، لكن العم أمره بإبقائها معه وأخذها إلى حيث كان يعمل. هناك شاهد في المكان الذي يقع غرب المطرية، عمل دؤوب لتشييد بناء ضخم حوله بنايات صغيرة، يليق ان يكون قصر للحكم وإدارة البلاد. أقبل نحوهم رجل ذو هيئة غير مصرية، وقال للعم أنه عرف عنه من عامله النشيط، وأفاده ان اسمه يسلم وأصوله من تعز، وقد جاء والده في سفينة هندية من عدن لذا يسمونه الحضرمي. رحب بهم وتوجه بهم نحو أساسات حائط، يبدو أنه سور شاهق سيحيط بالمكان بعد انتهائه، وسأل عما إذا لديه ملحوظات على العمل، حيث عرف عن أستاذيته في بناء القواعد، فرد العم بانه انما جاء للسلام عليهم. لما أصر اليمني عليه ليبين ما قد يعترض عملهم، أفاده ان الأفضل ان تكون القواعد من الحجر الصلب، وبعمق نحو ثلاثة أذرع وترتفع عن مستوى الأرض ذراع أو أكثر. أما قرب البوابات فتزيد عن ذلك قليلا، ويكون عرض القواعد أسفل الأرض ذراع ونصف، والحائط يعلو قامتين بعرض ذراع واحد، ثم ينقص ليكون نصف ذراع

حسب ما يرغبون. ونبه الرجل ان المكان في منطقة معرضة لهبوب الرياح، والأشجار والمباني متباعدة وقليلة، كما يلزم توفير نقاط للحراسة حيث يلاحظ وجود بعض البدو، الذين قد لا يتورع بعضهم عن السطو على ما هو ثمين. هز الرجل رأسه قائلاً يبدو انهم لم يخبروك عنها؟ فهذه سرايا عظيمة لرجل عظيم ذو نفوذ قوي، لا يجسر أحد على الاقتراب منها، ثم دعاه لينضم معهم ليشرف على كوكبة من العمال، ويوجههم للبناء على الوجه الأكمل، لكن العم وهو ساخط على عامله لم يكن ليقبل ذلك. لما رأى اعتراضه حثه على زيارتهم بين أونة وأخرى، لمعرفة مرئياته حول أدائهم للعمل وتقديم النصح لهم.

كان يقوم بذلك كل نحو سبعة أو عشرة أيام، حيث يقتصر على ملاحظة بناء الهيكل الإنشائي الخارجي، وفي زيارة دعاه الحضرمي لدخول السرايا الكبيرة، حيث هاله ما رأى من مظاهر الترف. شاهد اثنان من الموجهين أحدهما فرنسي والآخر رومي، معهما تصاوير ورسومات للسقف والحوائط والأرضيات، يظهر فيها القدر الجم من الفخامة والثراء، كما يحملون قراطيس فيها مصفوفات من الأصباغ، ذات ألوان مختلفة يبينون للحرفيين (الحرفية) كيفية تجهيزها، ثم تطبقها على الجدران والأسقف سواء الحجرية أو الخشبية. كان العم شغوفاً بالتعرف على أسرار ذلك العمل، والمهارات المطلوبة لأدائه بالطرق الصحيحة، وذلك لعشقه لأعمال الإنشاء ثم اختتام العمل في المباني وتسليمها، لكنه أعرض عن الاقتراب منهما، حيث شعر أنهما في شغل عما يحيط بهما، ولم يكثرنا لوجوده قريبهما. لما لاحظ "يسلم" انتباهه لما يحدث، تساءل عن أسلوب تكسية الجدران في الحريق، وما إذا كانوا مثل حضرموت، يكتفون بخلط عجينة ناعمة من الجص، يسكبون عليها أصباغ منوعة من الأحمر والأصفر والأزرق، ثم يضعونها بأيديهم على حائط الطين أو الحجر، فرد عليه بقول نعم "كأنه هو" وليس لدينا سوى "خُضير اللي أنت خابر" فبدا ان الرجل لم يفهم قصده. ثم قبض على يده وسار به نحو باب موصد، ولما أشار لخفيره بإصبعه فتحه لهم، ولما ولجوا في ذلك المكان هلل العم وكبر، فقد رأى قاعة فسيحة أرضيتها من حجارة المرمر الثمين، وجدرانها مزدانة بنقوش ومجسمات بديعة. أما السقف فعليه تصاوير ذات ألوان جميلة، لكنها تبدو غير شرعية بخاصة مركزها، حيث إطار مربع متسع، رسموا داخله رجل عجوز شبه عاري متكئ على أريكة صغيرة، ومن حوله لفيف من البنات الصغيرات المجنحات. أفاده الحضرمي ان ذلك ما يظنه الكاثوليك عن الفردوس الأعلى، حيث الإله الأب في سلطانه تحيط به إناث من الملائكة لتلبية رغباته! فاستعاذ العم من الشيطان الرجيم، وتعجب عما يدعو المسلمين ان يجعلوا في منازلهم هذه الكفريات. ثم اصطحبه الرجل إلى غرفة متطرفة، بها حاجيات متناثرة تبدو كأنها خزانة لأغراض متنوعة، لفت انتباهه منها صنم بحجم رجل قصير، يبدو كأنه يرجم بحجر وهو عار حتى بدت أعضاء حشمته. قال له ان هذا يماثل النبي داوود عليه السلام، أثناء المنازلة مع جالوت، فرد قائلاً إن هذا مما لا يرضي الله سبحانه. كما شاهد تماثيل لصقور

ضخمة وأخرى لعجول مختلفة الأحجام، لا يعلم الغرض منها وهي من ملامح زمن الجاهلية، التي كان المشركون يعكفون عليها، وتفكر لو انه أخبر الحراقي عن وجودها في كنانة الإسلام ما صدقوه. ولما انتهت الجولة وخرجا من القصر، كانت الشمس قد اتجهت نحو المغيب، فدعاه مضيفه لتناول بعض رشفات من الشاهي العدني، الذي تأتي صناديق محملة به من الهند، ثم يجهز في أوعية خاصة تحفظ البخار والنكهة، ويعد على فحم متوسط الحرارة وليس حطب ملتهب. أثناء ذلك نودي للصلاة فطلبوا من العم ان يأومهم، وبعد أداء الفريضة طلب "فاعل بناء" ان يصلي بهم ركعتي العشاء، نافلة له وفريضة سفر له وصحبه القادمون من بلدة بعيدة، فرفض العم واقترح عليهم ان يؤمهم أحدهم، لكنهم قالوا ان لا أحد منهم يحفظ شيء من القرآن. كان زيد بن عبدالله رحمه الله ذو صوت بديع، ويتغنّى بالقرآن في خشوع ووقار، وكان والدي عندما يؤم المصلين في مجلسه يقرأ بتلك الطريقة الهادئة، ويتساءل بعض المكثرون عنها ويبدون اعجابهم، حيث اعتادوا على سماع القراءة المهرولة الصارخة ذات اللحن. وقد قال لأحدهم ان عمه قد تعلم ذلك من جده علي بن حمد، الذي كان يرقى المرضى بالقرآن، ولا يقبل عليه أجراً إلا من الله، ويرفض ان يعمل مثل بعض الحجامين في حلة الحريق، الذين يقرأون ويصقون في ماء الزعفران أو الدهن، ويشرطون عليه مبالغ مالية حسب مقام المريض، رحم الله الجميع وجمعنا بهم في دار عفوه ورضوانه.

أرسل العم زيد بن عبدالله ذلك العامل ودراهمه، مع قافلة مسافرة ببضاعة من مصر للدلم، وكتب لوالده عن كلفتها وما يرغب في إرساله له من سلع ومواشي، وأخبره عن فعلة ذلك العامل ليتصرف معه بما يراه ملائماً، وطلب ارسال عامل بديل حيث يعاني من العمال المصريين. كانت أمور تجارته تسير بشكل طيب ولم تعد هناك حاجة لإرسال نقود من مصر، فتمن البضاعة التي يرسلها يزيد عن قيمة ما يشتريه، لذا طلب من والده ان يستخدم الفائض من الربح، في أعمال البر ويعطي المحتاجين من القرابة والجيران، وما يزيد يشتري به أراضي بور على ضفاف وادي الفُرع. في رمضان دعاه أحد المعارف القاطنين في بلبيس، إلى إفطار أقامه لقریب قادم من نجد، وهناك تحدثوا عن الأحوال تحت حكم أبو ثنيان. الذي بعد ان أتم السيطرة على قلب البلاد (اليمامة والوشم والمحمل) تطلع نحو البحر الشرقي، رغم وجود مناوئين له في القصيم وحائل. رأى العم ان ذلك من الفطنة والدراية، فالرخاء في نجد يرتبط بفتح السبل البحرية ثم تأمينها، واهمال ذلك يؤدي إلى وقوع نجد تحت نفوذ الساحل الشرقي. كما جرى في الماضي القريب أثناء حكم الدولة الجبرية ثم الخوادم، ولخص العم زيد الحال بأنه إذا لم تسيطر اليمامة على البحر الشرقي، فستسيطر عليها الأحساء أو القطيف (البحرين) عاجلاً. تحدث عريني من رماح عن حذر الثنيان، فقد نقل قاعدة عمله من الرياض إلى الصمان، وأقام مقر قواته في الرمحية، فقد كان الطريق عبر الدهناء وعر شحيح المياه. ومن هناك كان يوجه قادة كتائبه، ويوجههم للتوغل شرقاً والوصول إلى شمال القطيف، لكي يعاضدوا قواته المتجهة جنوبها للهوف، وبذلك تمكن من الاستيلاء

على الساحل الشرقي، ما عدا حصن ابن رحمة المنيع (الدمام) الذي بقي تحت سيطرة آل خليفة. وقد تهادن معهم حيث هم أعرف بالتعامل مع شيعة الشرق، مما وفر له موارد مالية جزيلة من المكوس والباجة، التي تفرض على البضائع الواردة من الصين والهند وجاوة. حيث تنقل السلع من تلك المرافئ براً للشام، حيث تحجم السفن عن الصعود شمالاً، لوجود اقتتال في عبادان والبصرة بين العشائر الفارسية والعربية المتناحرة، رغم ان جلهم من الروافض! عارضه سبيعي من الحاير ان الثنيان أمير طاغية، انقلب علينا بعد ان أيدناه ضد خالد بن سعود، وأخذ يطلب المزيد من الأموال ويقتل من يتباطأ عن الدفع، ذكره العريني ان ذلك ديدن كل حاكم جديد، وسرد بعض ما جرى في السنوات الثلاث، بعد تدمير الدرعية وشنق أميرها ومغادرة الباشا لها. وأيده آخر بأن ذوي المال الأذكياء، يسارعون لمنح (أو اقراض) أي حاكم مستجد، لقاء امتيازات أو مناصب في فترة ضعفه وبداية حكمه، وإذا فشل في احكام سيطرته يكونون قد احتاطوا لأموالهم. أما أنتم فقد عاندم الأمير الجديد فبطش بكم، لكنه ليس ناكراً لجميل سبيع الذين قاتلوا معه، بل منكرراً لرفض بعضهم تزويده بشيء من المال. أيد العم ذلك بأن ما ورد من أبناء اليمامة يؤكد عرفانه لسبيع، وإنما قتل رجال معدودين بخلوا عليه بمال يعلم ان لديهم الكثير منه، وأما التنكيل الجماعي فقام به ضد عشائر من الدوشان وبرقا وروق، الذين اشهروا سلاحهم ضده ورفضوا قبول إمارته.

بعد أيام تلقى العم دعوة من أحد تجار بلبيس اليماميون، ولما ذهب له، وجد صيوان فسيح تحيطه خيام عديدة، ولفت انتباهه وجود رجل مهيب في صدر المجلس، عليه سيماء الثراء والحكمة والقوة، وكان العم يتأمل ان يسمع أقواله حيث "زيادته أو نقصه في التكلم" ولاحظ اللحظة الذهبية لما سأله أحد الجالسين جواره، عن مرثيات باشا برج القلعة في حفيد ثنيان بن سعود، الذي استولى على حكم نجد وطرد مندوبه "خالد أفندي" من الرياض. فتحدث الرجل بوقار العارف ببواطن الأمور، ذو العلاقة مع الكبراء وما يحاك في دواوينهم، فبين بحذر كي لا ينسب للباشا أي أمر، انه يرى التريث لحين تبين الحال، وما إذا كانت هناك علاقة بين الإمام فيصل والثنيان، لأن الأوضاع في نجد غامضة ومرتبكة. ثم زاد بقول ان هذه أول مرة منذ أكثر من مائة سنة، يتولى حكم نجد رجل ليس من ذرية محمد بن سعود مؤسس امارتهم في الدرعية، لذا يلزم التأنى لحين جلاء ما خفي. سمع العم رجلين بجواره يقول أحدهما ان هذا هو الهلالي، أحد أثرياء مصر وذو العلاقة الوطيدة مع الباشوات، وسبق أن سأله أحدهم عما إذا كانت له علاقة بأبو زيد، صاحب السيرة الهلالية، فغضب وقال ان ذلك دعي لا يعرف أصله، فتارة يقول الرواة أنه قحطاني أو عدناني أو مضري. وقد طرد مع عشيرته من جزيرة العرب نحو القيروان، زمن الفاطمية لكي يقاتلوا السنة المعادين للروافض، وصيغت كثير من الحكايات الخرافية حول حربه مع الزناتي. ثم تحدث آخر عن الجالس جوار الهلالي، ولم يتأكد إذا كان السحيم أو السحيمي، وهو من تجار نجد جاء لمصر يعالج من العقم، ثم تزوج من عذراء ولم تلد، ثم تزوج من ولود أنجبت له ذكور وإناث،

ويعاونه في عمله الآن أبناء أخيه ولا يعرف نسبهما. أشار رفيقهم للعم وقال هذا الختلان قد يفيدكم في ذلك، فأوضح لهم هلال يختلف عن هلال، وهو اسم شائع فيوجد منه في ربيعة وتغلب ومطير وهوازن وعشائر أخرى. أما السحيمية ففي بني ثور سبعان عنيزة رهط منهم، لكنه لا يعرفهم جيداً حيث في أشراف الحجاز والقحاطين والحروب هذا الاسم. ثم تحدث رجل للهلالي عن نجاح الثنيان في اخراج عساكر خالد من الرياض، وما إذا كان والي مصر موافق على ذلك، وبين له الرجل ان بعضهم لم يرحل بل ذهبوا للهفوف، ومن غادروا كان ذلك برغبتهم حيث تضجروا من سوء المعيشة، وقلة نقود المشاهرة والمرض أصاب بعضهم. تحدث السحيم مبيناً ان خالد لما غادر الرياض، أخذ نفر من المصريين معه، لحرسته الشخصية حيث كان يرتاب فيمن حوله ليغتالوه. لكن الثنيان لما دخلها وجود عدد من عساكر الفرنجة، الذين كانوا يصاحبون جنود الباشا، لخبرتهم في تحضير مسحوق البارود، وكذلك إذابة الرصاص وعمل طلقات مختلفة الأحجام منه، ولديهم مهارة في تجهيز صناديق الألغام، التي تطيح بالأسوار القوية، وترتيب مقذوفات المدافع على مختلف اشكالها وغرضها. تسائل أحد الجالسين عن أولئك الفرنجة، فبادر رجل بإجابته أنهم جماعات من همج وسط أوروبا، مقاتلين أشداء يرتزقون من العمل في الحروب مع من يدفع المال. وحيث والي مصر يفضل العمال من الشمال مثله، ولايوقر المشاركة الآسيويين من القوقاز والترك، لذا فقد استعان بهم وجلبهم من البانيا، وهم أصلاً من سلالة جيوش قالا الإفرنجي. طلب منه الهلالي ان يبين المزيد عنهم، فقال ان الهمج لما انحدروا من الشمال لوسط أوروبا، توسعوا بعدها جنوباً حتى دخلوا روما قاعدة النصارى، ثم استقروا وأعجبته الحضارة والتمدن ودخل قادتهم في النصرانية، وكانوا على خلاف مع الهاربين منها شرقاً، الذين جعلوا قاعدتهم في القسطنطينية (بيزنطة ثم إسطنبول) فلما جاء المد الإسلامي لغرب أوروبا (الأندلس) بعد قرن البعثة، انبرى زعيم الفرنجة قالا أو مارتل في لغتهم للدفاع عن فرنسا، وجهاز جحافل عسكر النصارى للهجوم على الأندلس، وتمكن من قتل قائدهم الغافقي التابع للأمويين في دمشق. لقد مكنه ذلك النصر الكاسح من السيطرة على قلب أوروبا، التي تشمل فرنسا وألمانيا وشمال روما آنذاك، وغدا نداءً للبيزنطيين في الشرق، وحفيده "شارل مان" أقام علاقات مع الدولة العباسية (هارون الرشيد) في بغداد، بغية التعاون للقضاء على الأمويين في الأندلس. ثم نشأت فرق المرتزقة الفرنجة، الذين كان يكرههم سلاطين العثمانية، ويفضلون عليهم شاكلتهم، من مرتزقة وسط آسيا القوقاز وأكثرهم مماليك. ولما تولى محمد علي الألباني حكم مصر، فقد قرب اليه عساكر من جوار البانيا، مثل البشناق والأرناؤوط والفرنجة، وجاء بعض منهم مع حملة ولده احمد طوسون على الحجاز، ثم في الحملة التالية التي قادها بنفسه، وفي الحملة الثالثة بقيادة ولده إبراهيم. تحدث رجل من منفوحة عن وجود خمور وفجور، بعد ان دمر إبراهيم باشا الدرعية، وأرسل الإمام عبدالله والدرر النفيسة لمصر، فقام بعض الفسقة بجعل منازلهم مواخير للفساد. كان يأتيهم فيها عساكر الباشا للفواحش، مما أدى لنشر أمراض لم تكن معروفة في نجد، يسمونها "الشجرة أو

الفرنجية" وانتقلت لبعض السفهاء في البلدة والأماكن المجاورة. في نهاية الجلسة تقدم العم زيد للمضيف النجدي، ودعاه هو وكبار الحاضرين للعشاء في الجمعة التالية.

جهز العم وعماله بمعاونة الجيران مكانه في المطرية، ودعا بعض المعارف ومنهم يسلم العدني، وأعيان البلدات المجاورة الذين يلتقي معهم في الجامع، ونشأت بينه والهالي والسحيم علاقة عمل لفائدة الجميع. وبعد أيام جاءه مرسول من يسلم اليمني (الضرمي) يدعوه للحضور عنده في مباني القصر بعد عصر الغد، ولما وصل هناك لاحظ حركة زائدة وعدد من الجنود، خلاف ما كان معتاد عليه سابقاً، فظن ان في الأمر غير مجرد الاستفسار عن بعض أعمال البناء. أخبره أحدهم ان الباشا سيحضر لتفقد العمل، فسارع بإعطاء فرسه لأحد العمال ليهرول للمنزل، ويحضر له الملابس اللاتقة. لما شاهده الرجل يجلس متحياً، دعاه لمقابلة الباشا في جولته، فرد عليه ان الثياب التي سيقابل فيها والي مصر، ستصل بعد قليل فانهش يسلم وتساءل عن ذلك، حيث مالك القصر ليس الباشا الكبير ولا أحد أولاده، بل أحد حفدته الأمير عباس، وحثه على الألتقاء به قبل المغرب، حيث إنه صائم الخميس وقد أخرجوا العشاء، فرد العم بكلمته المعتادة "وإن كان" فسأنتظر. وصل الخادم سريعاً وذهب للقاء الباشا الصغير، فوجده ذو شخصية بشوشة وهو في عمر مقارب له، حيث لم يتعدى الثلاثين سنة ذو بدن متوسط، لكن لحيته الكثة تجعله يبدو مهيباً. سأله عباس عن ملاحظاته على البناء، فشرح له ما سبق ان أخبر به الضرمي، وتقبل بعضها لكنه كان ينصاع لمرئيات الفرنسيين. بعد العشاء أقاموا الصلاة ونادى الباشا الوهابي ليؤمهم، ولم يدرك العم أنه المقصود بذلك، وبعد أداء الفريضة انصرف الباشا لأداء النافلة، واندشش العم من سكون حركاته، خلاف عادة كثير من المصريين من تخفيف الصلاة. ثم دعا الباشا بمشروبات باردة واقترب من العم، وقال له إنني أيضاً وهابي لكني على الطريقة الحجازية، ولست من وهابية المغاربة الضالين، ولما رأى الدهشة على وجهه بين له ان أولئك يتبعون مذهب وهابي البصرة. الذي انشق على الخليفة الأموي قبل ألف سنة، ولما أحس منهم العداوة هرب عند المغاربة، وهناك أسس طائفة من الخوارج ضد ولاية الأمويين في جنوب غرب القيروان، قاتلت المسلمين من أهل السنة وقطعت الطرق. شعر العم بالريبة من قصد الباشا من تلك التلميحات، وأثر الصمت رغم نظرات حادة تستحثه إبداء الرأي، فاستمر الباشا في حديثه بأنه ولد في الحجاز، ولما عاد مع والده لمصر، تولى تعليمه رجل متحمس للطريقة الوهابية السعودية، القائمة على نبذ البدع والعودة لما كان عليه المصطفى واصحابه والتابعين. لكن العم بقي على صمته ولم يشاء ان يتحدث عن عدم وجود طريقة وهابية، بل التمسك بما ورد في الآيات الصريحة والأحاديث الصحيحة، وسلوك منهج وأخلاق الإسلام القويمة. وبعد هنيهة صمت دعاه الباشا للمشاركة في لقاء، سيعقده مع بعض المحبين الخميس القادم في منزله بينها، وأدخل يده في جيبه ليخرج مثل الليرة، وظن العم أنه يعطيه مال فاغتاظ، لكن الرجل الدمث تبسم وقال هذه شارتي الخاصة، وإذا وصلت هناك فليرها حرس البوابة فيدخلوك

فوراً. تعذر منه ان لديه عمل في بولاق التكرون، لكن الباشا أبي عليه وألح بوجود حضوره، مبكراً ليشاهد زراعة فواكه أحضرها المهندسون من أوروبا، وكذلك مرابط الخيل الرومية المهجنة، وتلك العربية الأصيلة المجلوبة من نجد. لما نادى المؤذن على فريضة العشاء صلى بهم العم، ثم ودعهم الباشا وحمل خدمه تلك الفنارات اضخمة ذات الإضاءة القوية، التي يسمونها كلوبات ومشوا جميعاً نحو ركابه، وعم الظلام في المكان حيث لا يوجد سوى سراج ضعيف. سار معه يسلم الحضرمي واعتذر لأنه لم يبين له ان الحاضر هو حفيد الباشا الكبير، وأردف القول بأن لقب باشا كان عزيز في السابق، لا يحصل عليه إلا الولاة والوزراء وأكابر القوم وعليتهم، بعد ان ينعم عليهم السلطان بفرمان المنحة، ويخلع عليهم أعطية وكسوة الباشوية. أما بعد حرب السلطان مع والي مصر الذي احتل جنوب الأناضول، ثم اتفاقية لندن التي منحت مصر استقلال جزئي عن إسطنبول، فقد سمح الوالي لنفسه الإنعام على من يشاء، من قرابته والعاملين معه لقب باشا على حد سواء، وكان قد غضب لما منح السلطان ولده إبراهيم لقب باشا من نفس رتبته.

في الخميس التالي جاء الحضرمي مبكراً للعم، وألح عليه تلبية الدعوة لبنها، حيث لم يكن راغباً في تحمل مشقة السفر خمس ساعات، ووصلوا هناك في العشي فلا حظ العم بساطة المبنى مقارنة مع ما في جوار المطرية. قبل المغرب سمع صوت بوق مرتفع، فذهب الحرس والعمال مسرعين إلى مكان قصي، لاحظ أنه مفروش بزرابي عادية. وقد أحضروا قرب ورشوا الماء جوارها لكبح تطاير الغبار، كما ان هناك حصير وأبسطة مدت باتجاه البوابة، خمن العم أنها لتمنع تعلق التراب بنعال الباشا الصغير. شاهد على بعد عربة مزركشة تجرها أحصنة مغولية، ثم لاحظ ان السائق يجلس في المقدمة مكشوفاً، وفي الخلف حُجيرة مقفلة لها نوافذ زجاجية، يتعلق بمؤخرتها حارسان مسلحان. توقفت الخيل عند المفروشات وتقدم الحارسان لفتح الباب، وسمحوا لنحو عشرين شخص بالاقتراب، ولاحظ العم ان بداخل قمرة العربة أريكتين متقابلتين، لا تكاد الواحدة تتسع لشخصين ملبسة بالقطيفة، وخشبها من صنف فاخر لامع. كان في الداخل ثلاثة رجال عرف الباشا، وجواره رجل تشابه عليه لكن لما تفحصه عرف أنه الإمام فيصل، وهو يرتدي جبة مصرية خضراء وعلى رأسه عمامة، وكان يراه من قبل في الجامع بملابسه العربية، أي المشلح (عباءة) وعلى رأسه الكوفية (غطرة) والعصابة. بعد السلام سار الإمام والباشا نحو الداخل، ولاحظ العم ان بساطة المبنى ليست خارجية فقط، بل من الداخل فهي لا تحوي إلا قليل من الزخارف، ولا توجد بها صور وتمائيل بل تشبه بيوت العتبة الزرقاء أو عند الفسطاط. كان الباشا والإمام صائمين ولما دعوهاما للتوجه لطعام الإفطار مروا في الخارج جوار منطقة الحظائر، فتوقفا لمشاهدة بعض الخيل الأصيلة، وتطلع العم إلى ما يقوم به بعض العمال من تلقيح فرس. فقد وضعت في غرفة ضيقة بابها من جهتهم منخفض، ومن الجهة المقابلة حاجز خشبي آخر أقل انخفاضاً، عنده عامل يقدم لها طعام بدا أنها تستهيه وانشغلت عما يدور

عند ذيلها. فقد كان هناك خلف الباب الصغير مجموعة من العمال، معهم رئيس خبير أدخل ذراعه في جرها، وفي قبضة يده ما كأنه كيس رقيق، وأخذ يعمل بمهارة للتوغل في رحمها. بين أحدهم للحضور ان هذا الإجراء يتم لتلقيح الأنثى الحرون بنطفة من حصان أصيل أبت أن يتزاوج معها، وهم يقومون بذلك أيضاً لتلقيح فرس بنطفة حمار قوي، بغية استيلاء بغال قوية غير ضخمة، تستطيع صعود المرتفعات وهي تحمل الأثقال. وصلوا باحة فسيحة عليها ألوان من الأطعمة والأشربة الفارهة، وانشغل الجميع بتناول ذلك ما عدا الجد الذي ذهب فكره مع الاستيلاء، وإمكانية عمل ذلك مع بعض النياق النجيبة، التي يأبى بعضها التزاوج مع الفحول المنتقاة، وقرر ان يجد طريقة لمعرفة سبل القيام بذلك. ثم رمق بعينه الإمام فيصل رحمه الله، فرآه ساهم الفكر شاردا النظرات كأنه يحمل هم عظيم، أو يعاني من ألم جسيم لا يكاد يبتلع اللقمة، والقوم حوله يزدردون الطعام في عجلة وبكثرة، حتى غير الصائمين منهم وذوي الأجسام النحيلة، مما أثار الحزن والشك في قلبه.

صلى بهم الإمام المغرب ثم جلس مع الباشا، يتبادلان أطراف الحديث مع بقاء مسحة الكدر والحزن على محياه. بعد فريضة العشاء علم ان الإمام سيبيت وصحبه في بنها، ولما أمر عماله بشد الرحال للعودة للمطرية، لاحظ أحد أخوياء الإمام جالس منفرد، وكان قد تعرف عليه في جامع الحنيفة. فسلم عليه ودعاه لزيارته يوم غد، فاعتذر ولما تبادلوا الحديث، بين العم قلقه من وجوم الإمام وملامح الكدر عليه، ودعا الله ان لا تكون به علة أو بأس. فقال له الرجل بل هو في حزن بالغ، حيث أخبره صديقه هذا الباشا حفيد الوالي، بما يسؤوه، حيث ان عبدالله بن ثنيان الذي استولى على ملك نجد، وفر منه الأمير خالد وبايعه كافة الناس، قد أرسل للألباني عهد ولائه له. وأنه سوف يرسل لمصر ثلث خراج البلاد، وسيحمي الطرق من الشطار (القطاع) وتوسل للوالي أن يقرضه بعض المال والسلاح، ريثما يتمكن من بسط نفوذه في بقية الأطراف، وقد وافق الباشا الكبير على ذلك، بعد ان أجرى مواجهة بين مندوب الثنيان و فيصل. لقد كانت تلك المقابلة بين الاثنان قاسية على خاطر الإمام، فقد فوجئ بالدعوة لها بدون معرفة مسبقة، ووجد أحد قرابته يقال له الأمير عياف، فجرت بينهما مقابلة خشنة لما ادعى الرجل ان إمارة الدرعية كانت لجدته الأكبر سعود بن محمد بن مقرن، الذي أخرجها من سيطرة آل معمر، وعلى ان تكون لاحقاً في ذرية أبنائه الأربعة. لكن محمد استغل ضعف أخيه الأكبر (الضرير) وتولاها، ثم جعلها في عقب أولاده بعد وفاته، الذين أساءوا لأبناء عمهم ومنعواهم حقهم. كما ان الرجل تكلم عند الباشا بما قامت به ذرية محمد بن سعود، من رغبة في التوسع وتمدد نفوذهم على جيرانهم، والإساءة لأهالي البلاد والاستيلاء على أموال الغير، وانهم أخلفوا العهود مع الخليفة السلطان ومعكم في مصر. ولما أطلقتم سراح "فيصل هذا" قبل خمس عشرة سنة، وأذنتم له ان يلتحق بوالده في الرياض على اتفاق موثق منكم، نقضا العهد وتعلمون ما فعلاه معكم لقاء احسانكم بهما. ثم أردف بأن الأمير عبد الله الثنيان قد سيطر على كافة بلدان نجد، وهو

من رجالكم وخادمكم لا يخرج عن طاعتكم، كما لا يُعرف عنه نقض العهود، وسيلتزم بإرسال حصّة سيدنا من ربيع البلاد لكم في مواعيدها. لكن الباشا رغب ان يتواجه المرسل مع فيصل عنده، وقد جاء كلاهما وكان عباس بن طوسون حاضراً، وتحدث عياف بطلاقة لكن الإمام فيصل لم يكن يعلم ما لديه ولم يستعد. فوبخه الوالي لأنه بعد مقتل أبيه وتوليه حكم نجد، أخل بالعهد ومد نفوذه شرقاً، ثم حارب عساكر مصر بقيادة إسماعيل بك وخالد أفندي (أخ الإمام سعود أبو الشوارب) لذا أرسل له خورشيد باشا في قوات كثيرة ونفقة باهظة. وحاربه فيصل في الدلم ولما حس بالهزيمة سلم نفسه وجاء لمصر منفياً، وها هو يعيش في راحة وكرامة. ثم تساءل محمد علي عن مجال إعادة الثقة في فيصل، الذي لم يكذب بياض في الرد حتى انبرى حفيد الباشا المحبوب (عباس) فقال ان ما جرى آنذاك في نجد، له علاقة قوية بحرب سيدنا مع إسطنبول. ولقد حاول فيصل بن تركي حل الأمر مع إسماعيل، وما جرى في الحوطة من مقتلة لجنودنا كان في غياب فيصل وبدون رضاه. ولما جاء من الشرق انعقد بينهم الصلح، لكن خورشيد حضر ونقضه وشن الحرب عليه، رغم انه أرسل له في ينبع أخوه جلوي مع هدايا وعهد أمان، لكن خورشيد أبى ذلك وأصر على الحرب، فسلم نفسه وها هو رهن إشارتكم الكريمة. ثم أردف حديثه لجده الباشا الكبير، انه منذ أكثر من مائة سنة لم يحكم نجد إلا ذرية محمد بن سعود، ونعرف عن تسليمهم الأمر لأنظاركم السخية، وقد جاء الإمام عبدالله قبل ربع قرن مستسلماً لأمانكم فشئق! وأما هؤلاء القوم فلا نعرف عنهم شيء، إلا ان أحدهم قتل خاله تركي (ابن عم أبيه) في الجامع بمؤامرة خسيصة، ولا نأمن ان يكرروا ذلك مستقبلاً. كان الوالي يحب عباس كثيراً ويسمح له بالتجرؤ، بما لا يقبله حتى من كبار أبنائه إبراهيم وسعيد، لكنه أشار له بيده ليكف عن الحديث، وأمرهم بالانصراف حتى يبحث الأمر ملياً. بعد أيام وافق ان يقرض الثنيان بعض المال والسلاح، على ان يسدد ذلك خلال شهور، كما يرسل لمصر ثلث خراج نجد كل سنة. على ان عباس طيب خاطر الإمام، حيث بينهما علاقة مودة وثقة وطيدة، فهو يدعي أنه سني ينبذ البدع الاسطنبولية، وقد ولد في جزيرة العرب لأم عربية، تحافظ على شعائر الإسلام وليست مثل الجراكسة! وقد أقام هذه الوليمة في بنها، بعيداً عن قصر الأزبكية، حتى يتداول مع الإمام ما يمكنهم عمله بدون إغاضة جده الباشا الكبير. تساءل العم زيد عن مصدره لتلك الرواية، فقال ان صهره أحد الحرس المقربين للوالي، وقد حضر أثناء ذلك الحوار في قصر شبراء، فلم يشاء الجد ان يبدي اعتراضه على بعض ما فيها من أقوال. فقد كان العم حريص على مسألة تخصيص إناث بعض الركائب، كما شاهدتهم يعملون قبل مغرب ذلك اليوم، وطلب من الرجل ان يدخله مع العاملين في تلك الصنعة، ما دام أنه مقرب من الباشا عباس.

رد عليه سريعاً بالإيجاب وتوجهها لأحد كبار العاملين في قصر بنها، الذي خيب أملهم بالقول ان أولئك القوم ليسوا من عمالنا، بل هم من المغاربة اللوبيك يعملون في القذارة لحساب أنفسهم. وبعد الإلحاح وافق ان يصاحبهم أحد خدمه لمجرد التعريف، ولما التقوا

كبيرهم عرفه العم زيد على نفسه انه قادم من بلاد العرب، ويود ان يعرف أساسات تلك الحرفة ليعملها في بلاده. بعد رفض ثم أقوال عديدة وافقوا لقاء مال غير يسير، وقال كبيرهم ان الايضاح الكلامي غير مجد، فلا بد ان يلحقه بيان عملي ثم تطبيق حي. أمضوا الهزيع الأول من الليل يبينوا للعم أسلوب الممارسة، حيث يجب على الملقح أولاً ان يستخرج النطاف من الفحل، بأن يصف له حتى ينتشر ثم يدلكوه لاستخراج الماء منه، ويجمعه في كيس من أمعاء أو مئانة صخل أو عناق. بعدها يباشروا العمل الصعب بضخ المنى داخل رحم الفرس، بالطريقة التي تضمن حدوث الحمل مباشرة، ولما تساءل العم عن تلك الطرق وكيفية اتقانها، أجابه الرجل بانها "الممارسة والخبرة" وهما شيء غامض بالنسبة للعم، فطلب اجراء تجربة لتلك الأعمال. توجهوا لحظائر الخيل وأمره بقص أظافر يسراه، ريثما يحضروا بعض المستلزمات، من بينها حليب ودهن الماعز وبيضة صغيرة مسلوقة نزعت قشرتها. رفع أكام ثوبه وجالوسته وغسلوا ذراعه ثم نضحوه بسوائل، وقبض البيضة ثم وجهه كبيرهم ان يولج يده في المشافر، اضطربت الفرس لبرهة لكنهم أشغلوها بطعام محبب، وكان الحاجز الخشبي يمنعها ان ترفس للخلف. لما غدا كامل الكف ونصف الذراع داخل مهبلها، وجهوه للبحث عن رقبة الرحم فلم يتمكن من ذلك، وهو قابض على البيضة الصغيرة في كفه، ولما عجز عن ذلك قال كبيرهم بلزوم ان يشاهد بعينه ما بالداخل، لذا يلزم التريث للغد لإجراء ممارسة فعالة. لكن ذلك يستلزم الحصول على فرس كبيرة، وبعد ذبحها سيُشرح وركها وتفتح بعض أمعائها، ليرى بنفسه الرحم وكيفية ادخال النطف فيه، حيث يبدو أنه لم يعمل في القصابة من قبل. فأكد ذلك لكنه تساءل عن النفقة، فقالوا له ان عليه دفع ثمن الفرس وأجرة السلخانجي، لكن أحد المصريين قال إنه يعرف قوم يذبحون الخيل المتعبة، ويطحنون لحمها ويخلطونه مع لحم الجاموس. وما على العم سوى دفع ربع قيمة الفرس، ولا يأخذ شيء من البهيمة، ويمكنه إحضارها قبل طلوع الشمس. وافق الليبيون على حضور ذلك، ليبينوا له موضع الرحم وسبل إدخال النطاف فيه، وقال آخر ان المُهرّة الصغيرة، إذا وضع في مهبلها ماء فحل نشيط، لا يزيد عمره عن أربعين شهراً، فهو يكفي لحدوث الحمل بإذن الله، مالم يتعرض للهواء كثيراً، ولا داع لإيلاجه داخل الرحم.

بعد صلاة الفجر بقي العم يسبح ويذكر ربه حتى أسفر الصبح جداً، ويتطلع لقدوم الربيع حتى جاءه أحد عماله يطلب بشارتين، لما لديه من أنباء سارة أولها ان القافلة التي تأخرت كثيراً وصلت بلبيس سالمة. والبناء الثاني هو نزول رحمة الله وغيثه، وان المطر الغزير قد عم كافة البلاد، وقد مشى باطن وادي الحريق بقوة حتى التقى مع برك، ويظن الناس أن سيلهما انحدر شرقاً بجنوب، وربما يصل بحر سلوى ودوحتها، وهو مالم يحدث منذ عشرات السنين. وقال أيضاً إن شدة المطر وجريان الشعاب، لأيام عديدة منع الجماعة من التوجه "لصلاة الفطر" في مكانها، وأدوها في الجامع وسط البلدة، كما ان المطر عم الوشم وسدير والقصيم والمدينة. أنتى العم على خالقه وشكر

فضله على عباده وخر ساجداً، حيث لم تهطل أمطار جيدة منذ اغتيال إمام المسلمين قبل نحو عشر سنوات، فغارت الآبار وجفت مفاالي الحريق، وجاع بعض الناس حتى أكلوا أغصان الشجر. أمر العمال لذبح كبش وطبخ "قدير معجل"، ليأكلوا منه في الغداة ويعدوا "صنيف شواء"، مع التمن والحنطة المجروشة لطعام العشي. وبقي ينتظر القادمين من ضواحي أنشاص، لكنهم لم يحضروا إلا بعد الضحى، ولاحظ العم أن معهم عربية على عجلات، يجرها حمار نشيط يسير بجواره ثلاثة من أشباهه، واستلقى عليها اثنان يتحركان بصعوبة لهش الذباب! ولما وصلوا تبين ان ليس معهم فرس، بل حمير فقط وكاد اللوبيك ينصرفون غضبا، لكن الرجل أسر لهم بكلام ودفع لهم دراهم، فأرتاب العم وظن في الأمر خديعة، لكن الرجل قال له إن الأتان (الحمارة) لها رحم يشبه الفرس، وإذا تتركنا نذبح ونسلخ في مكانك هذا، لن نتقاضى عليك شيء وستتعلم بلا مقابل. سأل الليبي فقال إننا لا نعمل في الحمير، لكننا سنقوم بذلك مجاملة لك، ورحم الأتان تشبه الفرس ويعاشرها الحصان، وتحمل منه أحيانا فتلد مخلوق غريب الشكل! أنزلوا البهيمتين المريضتين وباشروا في ذبحهما، وهم يتلفتون حولهم كأنما يخشون أمر ما، وأعملوا شفراتهم وسواطيرهم فيهن، وأمرهم الليبي بالبدا في نزع الرجل اليمنى العلوية. توجه كبيرهم مع العم حيث أخذ يبعد الأمعاء، حتى ظهر كيس يشبه الصميل له فوهة جانبية، ووجهه ان يدخل يده ثم نصف ذراعه في المشافر، حتى بلغ قرب عنق الكيس الذي يرى ما بداخله، وطلب منه ان يسجل ذلك في ذاكرته، حتى يكرره فيما بعد بدون مشاهدة. بين له أيضا ان هذا الكيس الصغير (الرحم) يمتط بأمر الله بعد الحمل، حتى يستوعب كامل الجنين الحي، ثم وجهه كي يدخل سبابته برقة داخل الفوهة الضيقة، التي تتوسع عند حدوث الطلق حتى يمر منها الوليد، وشرح له كيفية التعامل مع فم الرحم في الدابة الحية، حتى لا يزيد عليها الألم أو يحدث تمزق ونزيف قد يؤدي بحياتها. كان ذلك الدرس صعباً ومزعج، فالدماغ والروائح الكريهة تزكم الأنف، لكن الرجل بين له ان المهارة لا تكتسب إلا بما يقابلها. أدرك العم ذلك وتطلع لجنّة الأتان المضطجعة على جنبها الأيسر، وتوجه ليعيد عمل ذلك ليتأكد من معرفته لكافة الخبايا، وتبعه المعلم صامتاً ولما شاهده يتقن العمل أشاد به، لكنه استدرك بالقول ان العم زيد لن يستطيع ممارسة ذلك بجودة، وذلك بسبب ضخامة جسده وبخاصة أعضاء المهمة من أصابع ويدين وذراع. وأضاف أنه في بلدتهم (الطاحونة) يستعيون أحيانا بالفتيات الضغيرات للقيام بذلك، حيث ان هذا العمل لا يستدعي قوة عضلات أو فكر عميق، بل يلزمه ممارسة دقيقة للتعامل مع الأعضاء الشديدة التحسس، وبخاصة مع الخيل النجيبة التي يخشون تلف بعض عروقها، مما قد يؤدي إلى عقمها بالكامل.

أخرج العم من مخبأته (جيب ثوبه) صرة دراهم لقاء أتعابهم مع إكرامية، لكنه قال انه لن يعطيهم إياها إلا بعد تناول الطعام، واعتذروا انهم يريدون الوصول لبنها البعيدة قبل هزيع الليل، وأنهم قد أكلوا في الضحى من ذبيحته، فرفض ذلك وأفادهم ان العشاء سيكون قبل العصر. جلسوا يتحادثون وأمر أحدهم العمال المصريين بتنظيف المكان،

ورفع كافة ما يُبَيِّن بقايا ذبح وسلخ الحمير. قالوا ان الوالي قد قبل الفتوى بعدم جواز أكلها، وما جاء في الأثر عن السماح به في خيبر، يخص الخمر الوحشية وليست الأهلية، ومن يضبط بذلك يعزر بالغرامة ثم السجن والجلد، ونصحوه الا يسمح لأحد بتكرار ذلك في محله. تساءل عن الحال مع لحم الخيل؟ فبينوا ان ممالك التتارستان والداغستان والطاجيك، كلهم يتناولون لحوم وألبان الخيل، ورغم أنها غير مقبولة لغالبية الناس في مصر، إلا أنها ليست محظورة ولا يعاقب من يبيعها. لما قاموا للانصراف وأحصوا الدراهم ووجدوها وافية وزيادة، قال كبيرهم ان لدينا في الغد عمل مهم لتخصيب أفراس الباشا، ودعوه للمشاركة معهم لاكتساب المزيد من المهارة، على ان يغادر المطرية مبكراً ليصلهم في وسط النهار، فذلك أفضل من العمل ليلا الذي قاموا به البارحة. غادر مع عماله المطرية قبل طلوع الشمس، لكن اضطراب جو السماء عرقل مسيرتهم، ولما وصلوا حظائر القصر قالوا انه لم يتبقى سوى أربع أفراس، وباشر العم معهم في تخصيبها من فحل يتميز بخصائص مستحبة. وكانت إحداهن فرس حرون (عنيدة وعاصية) إلا ان العمال لجموها، وكرروا اللقاح لضمان الحصول على أجنة طيبة. جلس مع الليبي الكبير منهم لمراجعة بعض مرئياته، بشأن خصائص تلك العملية وأسرارها، وسبل تلافي حدوث أخطاء تؤدي لفشل التلقيح اليدوي، أو تسبب ضرر أو عاهة للفرس الحامل. ثم أفصح له العم انه يشكر جهودهم لتعليمه خبايا تلك الممارسة، إلا انه ليس شغوف بما تدرّب عليه مع الحمير والخيل، حيث يود ان يمارس ذلك مع النوق والبقر، أما الخيل فهم يجلبونها من عُمان حيث المراعي الملائمة، وهو يريد ان يمارس ذلك عند عودته لبلدته. فاعتذر له الرجل ان ليس لديه معرفة بطرق تخصيب البقر والجمال خارجياً، وأشار انهم في بلاد النوبة يقومون بربط النياق ويلقحونها رابضة، وبعضهم موجود في ميت عقبة جوار إمبابية. التقى هناك ايضاً يسلم الحضرمي وتبادلا الحديث، فأوضح له وجود خلاف بين الباشا عباس وعمه سعيد الأصغر منه، حيث عهد محمد علي لحفيده بتدبير الأمور المالية، ورغم كرمه الشخصي إلا ان عباس أخذ يتقشف في النفقات الحكومية. وقد شيدوا الكثير من المدارس والمصانع والقناطر، وشقت الترع والمصارف واستصلحت الأراضي البور، وما زالت تتطلب كثير من النفقات لاستكمالها ورعايتها. ولما ألغى بعض نفقات عمه لنقص الإيرادات، غضب سعيد من ابن أخيه وحدثت جفوة بينهما، وحاول العم الأكبر ابراهيم (مدمر الدرعية) رأب الصدع فلم يفلح، بخاصة ان عباس مازال ينفق ببذخ على شؤونه. فهو يؤسس حالياً مزرعة ضخمة قرب المطرية، جلب لها أكثر من ألف نعامة من خارج البلاد نفق بعضها، ويعمل ايضاً على احضار طيور رومية لها، مثل الطواويس والبجع والفلمنكو، وهذ مما أثار حفيظة عمه سعيد، الذي اشتكى لوالده فلم يعره انتباه، فاشتدت الخصومة والنزاع بينهما.

عاد مع الحضرمي للمطرية حيث كان الرجل يرغب شراء بعض الدواب، ولما أصبحوا وشاهد آثار الدماء وسلخ الحمير، حمد الله ان أحداً لم يعلم عنهم ويبلغ العمدة،

وإلا لوقع في ورطة كبرى. ونصحه بعدم السماح لأحد ان يستخدم مكانه لأعمال مخالفة لأوامر الباشا الكبير، الذي يطمح لجعل مصر على صف البلاد المتقدمة. في الشهر التالي توجه مع عماله، وبعض الرفاق لصلاة العيد في جامع متسع، جوار مقام السيدة نفيسة في الفسطاط، حيث قيل ان الإمام فيصل سيؤم الصلاة فيه. لكن من قام بذلك شاب من ذرية الشيخ محمد، ثم ألقى فيهم خطبة مكتوبة على النمط السائد، بعدها توجهوا للسلام على الإمام وبعض قرابته من بينهم ولده عبدالله، ذو الطباع الحسنة والمعاملة الطيبة. لاحظ العم ان الإمام بدا ضامر البنية شارد النظرات، ساهم المحيا ضائق الصدر من هموم جسيمة، لا تكاد يده تصافح أيدي أهل وسط بلاد العرب، الذين تجمعوا حوله لشدة أزره والسؤال عن حاله، بينما كان المصريون الذين غص بهم المكان يتطلعون في دهشة. في الشهر التالي كان عند قصر عباس، ودُعي للسلام عليه إذا حضر بعد العصر، وهناك عرفه الباشا ورحب به أنه الذي يرتل القرآن ترتيلاً، ثم سأله عما سمعه من وجود طائر النعام في بلده. فرد عليه ان بجوارهم وادي الفُرع، الذي يسمى في الزمن القديم وادي نعام، حيث كان قليل السكان تجوب فيه بعض المخلوقات غير المستأنسة، مثل طائر النعام والوعل والظبي. قال له الرجل ان ما أحضره من الخارج من طيور ومخلوقات، لم يتعايش مع الحرارة والجفاف وعواصف الرمل، وأثناء ذلك خمن العم أنه سيطلب منه جلب بعضها، مادام أنه يعمل في جلب المواشي والمتاجرة فيها. وهذا ما جرى وكان مستعداً له، فأجابته ان تلك الحيوانات قد انقرضت الآن، خاصة بعد استخدام طلقات البارود والرصاص للصيد، وفي السابق لا يستخدمون سوى الرمي بالنبال أو الحجارة. وأضاف له ان الرحلة لمصر شاقة وطويلة تستغرق أكثر من شهر، وفي الطريق كثير من القبائل التي تتقاضى باجة المرور في أرضها، لكن الرجل بدا عازماً على ذلك مستعد لدفع ما يلزم لقاء التعب والنفقة، حيث أوصوه ان الطبيعة في نجد تشبه صحراء شرق مصر. ثم سار معه وحادثه بلطف عن سفينة صنعت حديثاً لوالده الباشا الكبير (محمد علي) اشتراها من الفرنسيين، وهي تسير بآلات في باطنها يسخن فيها الماء بالفحم، وعندما يشتد بخاره يستخدموه ليحرك السفينة بانتظام، بدلا من الأشرعة التي تضعف عند سكون الهواء. وقد أبى الفرنجة ان يبيعوه تلك السفن البخارية ذات الحجم الضخم، التي يمكنها ان تمخر عباب البحر العالي، واكتفوا باثنتان من الصغار التي تسير في النيل، وقد دعاه ان يحضر الجمعة القادمة لبولاق، حيث سيخرج في نزهة بإحدى تلك السفن مع بعض الرفاق، لكن العم طلب اعفائه من ذلك حيث يصيبه الدوار، حتى عند ركوب زورق صغير ليجتاز النهر نحو الجزيرة، ولم يعزم أو يلح عليه للحضور معهم، لكنه كرر التأكيد على رغبته في جلب النعام العربي. بعد الانصراف قدم نحوه أحد أعوان الباشا، وناولته صرة فيها دراهم وقال له أنه يعلم أنكم لا تقبلون إلا الفضة، وأمره ان يكون في أرض النعام مرة كل يومين، ليوجه العاملين لما يجب عليهم القيام به، ولما تعذر لارتباطه بأعماله الأخرى نظر إليه شزراً، وقال ان رغباتنا سيدنا أوامر مطاعة، ولا تتأخر في احضار النعام العربية. فيما بعد جاءه البعض يحضونه للتعامل مع الباشا، حيث انه كريم العطايا

وسيدفع له الثمن المجزي لما يورده له، لكن أحدهم حذره ان الباشا كريم مع المحظيين عنده، أما الباعة فيماطلهم رجاله وينتقصون من حقهم، ومثل تلك الأنعام لن تجد من يرغب شرائها قط. وقع العم في حيص بيص فشعر بالقلق على نفسه وعمله لو غضب عليه عباس، وإذا دخل في مخاطرة جلب دبش لا يعرف عنها فقد يخسر أكثر، وهداه الله لفكرة تقديم هدية للباشا من بعض النعام والمها، لا تكلفه كثيراً وتدفع عنه سطوة ذو السلطة، أما العمل بأجره لدى الباشا فشيء غير مقبول. بدأت تراوده فكرة تصفية عمله في مصر والعودة للحريق، لكن علاجه لم ينتهي والمرأة التي ارتبط بها مازالت على ذمته، أما المكان والبهائم والبضاعة فأمرها متيسر. تكلم في ذلك مع يسلم الحضرمي، فأوصى ان يذهبوا سوياً بعد غد للنعام، وهناك يعرف أحد خواص الباشا، قد يرشدهم لما يجب عمله.

لما وصلوا هناك توجهوا لرجل يقال له شحاتة، رحب بهم بريية وأخذ يحملق فيهم بفضول، ولما عرف السبب سأل العم إذا كان يعرف الكثير عن طائر النعام، فنفي ذلك بشدة وأضاف أنه لا يعرف أيضاً عن بقية الحيوانات غير المستأنسة (البرية) التي أخبره الباشا عن رغبته في اقتنائها. كما بين له أنه مجرد تاجر مبتدئ، كما ان تلك الدواب لم تعد كثيرة في بلده، فقد تناقصت أعدادها كثيراً بعد جلب بنادق الرصاص، وهو يريد مشاهدة ما لديهم من نعام ووعول، وما يمكن احضاره من وادي النعام، أو من جبال الوعول القريبة من قريته. فتظاهر الرجل بالترحيب بهم فهم من أعوان سيده الباشا العظيم! واستدعى أحد العمال وأسر إليه بكلام لم يعرفوا كنهه، لكن الظن أنه لو كان خيراً ما أخفاه عنهم. خرجوا من البناء وذهب بهم الرجل إلى أرض الدواب، حيث فضاء صحراوي متسع وخمسة حمير مسرجة، ودعا ليركبها مع المرافقين وتساءل "ما عرفتهومش يابو عبدله" فرد عليه انه يعرف الوسم. ذكر له الرجل أنهم قد اشتروها منه قبل شهر، وان الباشا قد أعجب بتلك الحساوية النشيطة، ولما عرف أن جالبها من بلدة "حريق نعام" بداء يستفسر عنه. أفاده العم ان معهم خيل يريدون ركوبها، للتجول في المكان بدل الحمير، فقال ان الخواجة يرفض ان تدخل أي بهيمة الأرض، حتى لا تصاب الموجودات بأمراض سارية. لاحظ العم ان المكان محاط بسياج من قصب الناي، المشدود لبعضه بالحبال، لكي تمنع تأثير الرياح عليها، وتحمي من دخول الذئب والضباع المنتشرة في تلك المنطقة النائية. على البعد شاهد جماعة من الكائنات تنفر من مشاهدتهم، من بينها نعام من فصائل مختلفة، وطيور أخرى متنوعة ووعول وظباء، بعضها يتجمع حول بركة مياه، وأخرى تأكل العلف الموضوع في أوعية من الحديد. في نهاية الجولة استفسر عن طريقة احضار هذه الكائنات، فأخذه عامل نوبي إلى مكان منزو فشاهد صناديق خشب، مفتوحة للهواء من ثلاثة جوانب والرابع باب، وقال له انهم يحضرونها مع فراخها وبيضها من الحبشة (الكبرى آنذاك وليست أثيوبيا) لكن بعضها ينفق أو يهرب في الطريق. أمر العم أحد عماله المهرة بلوشي، ان يحضر المرة القادمة ومعه ورقة قرطاس، وريش رسم ويخط مثل ذلك "الصندوق القفص"

ليرسله لوالده في الحريق، فيصنع نجارو الحلة شبيه له. غدا العم يتردد على أرض نعام الباشا، أكثر من مرة كل جمعة ويوجههم لتحسين المكان، لخفض معدل وفيات تلك الأنعام التي تسرح فيه. ذات عصر جاء عباس حفيد الوالي، ليتفقد أرضه ودوابه وتصادف وجود العم، فتلقاه الباشا ببشاشة وأثنى على جهده لمتابعة المكان، وأنه قد بلغه عن إرسال قطع معدنية لأبواب الأقفاص، التي ستجلب فيها النعام والظباء من نجد. وسأله عما إذا يلزمهم شيء فبين ان المكان متشطر عن المساكن، وهذا يخدم في تقليل حدوث جائحة من مرض، قد يقضي على جزء من القطعان، لذا أوصى بفصل أصناف الحيوانات عن بعضها، حتى لا يصيب بعضها أحد الأمراض السارية، التي تعدو سريعاً إذا تزاومت البهائم على الماء أو الطعام. أما البعد عن المساكن فقد يسمح بتواجد بعض السباع الصغيرة، التي تتسلل عبر السياج الضعيف وتلتهم الصغار، لذا فهو يريد إحضار بعض شبك الصيد، لتعزيز السياج ومنع دخول تلك الضواري، بخاصة من الجهة الجنوبية الشرقية حيث الفيافي، فأمر أحد موظفيه لسرعة تأمين ذلك من مقره في رأس البر. أشار الباشا بيده فذهبة كوكبة المرافقين، ولم يبق معه سوى اثنان من "ممالك البرقوقية" لا يحسنون العربية، وأمسك بيد العم وانتحى جانباً، يسأله عما يرى في آخر ما جرى بنجد، فرد العم أنه لم يتلق رسالة من والده منذ العيد، ولم يزر الجماعة في الخطة منذ المشهد. فتحدث بغضب وأخذ يسب الثنيان ويتهمه بالخيانة والغدر، فقد انقلب على ولي نعمته الذي مده بالمال والسلاح، ثم تنكر للفضل ورفض سداد ما في ذمته، بل طال أذاه رجال سيدنا الوالي، وهو الآن يعمل للتحالف مع نصارى الانجليز. أخذ الباشا يتطلع نحوه بانتظار جوابه، وارتج العم ولم يجد ما يقوله سوى الركون للجهل، ثم أنه مشغول بأعماله وأسرته. تبسم الرجل وقال ان بنات بني حامد بديعات، لكن رجالهم أشرار وحذره من الذهاب للحوامدية منفرداً، ثم استدار فجاءه ونظر في عينيه بحدة، وأمره ان يخبره عما يعرفه عن فيصل. قال العم إنه منذ جاء لمصر لم يرى الإمام إلا مرات قليلة، وعادة سلام سريع مع حشد من الناس في جمعة أو عيد. وفي الدلم قبل؟؟؟؟؟؟؟؟ لم يجلس معه قط، بل رآه مع أهله وقوفاً ولم يحادثه، وحتى أثناء نزاعه مع الأمير خالد وإسماعيل بيه في الحاير لم يلتقيا، أما أثناء حصار الدرعية فعلمت من جدي أنه شارك جوار والده تركي، ثم أسر مع إخوته الكبار ونقلهم إبراهيم باشا لمصر، وقد كنت رضيعاً آنذاك. حاول العم التملص من أسئلة الباشا بادعاء الجهل، لعدم رغبته الخوض في المجهول، فلم يكن يدرك الغرض من الاستفسارات، فبادره الرجل بسؤال محدد عن الكذب والغدر والخيانة. حينها رد سريعاً بان تلك السمات أبعد من الثريا عن خلقه، ويكفي عمله أثناء منفاه الأول لعشر سنوات، ثم حبه للسلام مع ابن عمه حينما تقاسما حكم البلاد، فأخذ خالد شمال اليمامة من الرياض لسدير، واكتفى فيصل بجنوبها من الخضرمة حتى الأفلاج. ثم عند مجيء خورشيد أرسل له أخاه جلوي بالهدايا والترحيب، ولم يحرض أهل القصيم على عصيانه، ثم سلم نفسه للأسر في الدلم ليفتدي أهلها، ويحقن دماء بقية المسلمين، ولم يعرف عنه ذات يوم شيء من الغدر أو الخسة، مع صديق أو حليف أو حتى العدو. ثم ختم بالقول

ان الباشوات إبراهيم وخورشيد، يعرفون أكثر منه عن الإمام فيصل ونزاهته، فهز عباس طربوشه قائلاً "ايه الباشوات؟" ثم انصرف.

رتب العم سفر البلوشي ومعه رسم للصناديق، المخصص بعضها لفحول النعام، وأخرى لتلك الراقدة على بيضها، وصنف للمها وللوعول والظباء. كما زود بقية العمال بكمية وافرة من بضائع مصر. وقد استغنى بذلك عن ارسال دراهم للحريق، ماعدا بعض الحلبي الذهبية لوالدته وقرابته، وعصا ثمينة من الأبنوس الفاخر ليستند عليها جده، وخماخم وألعاب للصغار وشيء من مأكولات النقل، الواردة من الشام وبلاد الروم والقيروان. ذات يوم جاءه عامل يقول ان رجلين عرب يريدان لقائه، فأمر بإعداد ما يلزم ورحب بهما، فوجد أحدهما دوسري من اللدام، والثاني مصري من أسيوط. ثم تحادثا معه عن أعماله في المطرية، بعدها عرجا على القصد من الزيارة، وهو ان بعض محبيه يوصونه بالحذر، في تعامله مع حفيد والي مصر عباس، ويرون عدم التوسع في علاقته معه، حيث إنه سريع تقلب المزاج ويتعامل بعنف وقسوة أحيانا، كما يتلفظ بكلمات جارحة مسيئة، ويأكل أموال الناس يالباطل ثم يبيطش بهم. ساورت الجد الشكوك لما رفضوا الإفصاح عن أرسلهم، وخشي ان يكون هذا اختبار لوفائه، لكنه لم ان يشاء مصارحة ضيوفه، فقال انني لست أعمل مع الباشا، لكنه جار أراه بين أونة وأخرى. وليس بيننا سوى المعاملة الطفيفة، وتبادل الرأي فهو محب لأهل جزيرة العرب، فهي مسقط رأسه ويستمتع لأراء بعضهم، مع ما لديه من أعوان ومشاورين أكفاء، من الفرنسيين والروم والتركمانيين والمغاربة. قالوا ان الرجل يكن العدا ويضمر الشر لمن حوله، ثم بعدها يتعامل بقسوة معهم ويؤذيهم، ولم يسلم من ذلك حتى قرابته. فهو يدعي ان والده قد خرف، وان عمه الكبير إبراهيم باشا دعي، ليس إلا أحد أبناء زوجته وقد أُلحِت عليه ان يتبناه ويلحقه بنسبه، أما عمه سعيد فهو أصغر منه، وتتص "اتفاقية لوندرا" ان ولاية العهد في مصر، تكون لأكبر ذرية محمد علي سناً وهو أحق بها. كما ان السرايا هذه بجواركم سلبها من ملاكها، وكذلك أرض النعام الشاسعة شمالها، ويطمح ان يربطها مع قصره البعيد في بنها، ويضيف معها الزقازيق لتكون أبعدية له ولذريته. ولما قال له أحد المقربين ان ذلك ليس من الأطماع بل من الأطماع، غضب منه وأمر حرسه ان يخرجوه من المجلس، ويلقوه في زريبة الحمير لعدة أيام. ثم قال أحدهم ان عباس يبدأ علاقته بالعطايا ثم ينهيها بالرزايا، وكل حصيف يحذر من الانزلاق وراء هباته الشريرة، ويتفادى التعرض لأذاه ولقسوته. بقي الجد في حيرة واسترجع في ذاكرته ملامح ونظرات الباشا، فليده نزر يسير من الفراسة، لكنه ليس مثل الأعرابي الذي يحزر كنه الرجل من قفاه، وظن ان حديثه معه كان ينبئ بأمور مستترة. لذا حاول في الأيام التالية تفادي الحضور أثناء زيارته المعتادة، لكنه بعد فترة تلقى إشارة للحضور عصر اليوم التالي، فالتقى به وحادثه ببشاشة وحبور، وكأنه استحسن بعض الثقل لدى العم، فسأله عما إذا كان هناك ما يؤذيه، فتعذر بظروف الأقارب في حريق النعام! أوصاه بتثبيت انتباهه لعمله في مصر، فليس بمقدوره عمل

شيء عن بعد سوى الدعاء لله. ثم أخبره الباشا ان جده الوالي متوعدك أيضاً، وقرر السفر حسب توصية طبيبه لإحدى جزر اليونان، ليقيم فيها بعض الوقت ويستجم من عناء العمل، ويتنفس هواء نقي بعيداً عن زحام القاهرة. وقد كلف إبراهيم باشا لتولي رعاية البلاد، وعلى ان يقوم هو بمساعدة عمه في ذلك، لذا فهو سينشغل بأمور الدولة، ولن يتمكن من الحضور عندهم، فأوصاه بزيادة ملاحظته لأرض النعام، ودفع له صرة كبيرة من الفضة استاء العم منها ولم يسعه رفضها.

ذات ظهيرة يوم عاد أحد عماله من العتبة مسرعاً مكفهر الوجه، وأخبر العم زيد بن عبدالله، ان الإمام فيصل قد اختفى ولا يعلم مصيره، وتكاثرت الأقاويل بأنه مخطوف أو محبوس أو هارب، بل يدعي البعض أمور عجيبة بأنه من أولياء الله، وجاءت الملائكة وحملته على أجنحتها للكعبة. شعر العم بالرغبة والقلق من ذلك، وكان يعلم ان الباشا أمره بالإقامة ملحوظاً في أحد أبنية قلعة الجبل، ويؤذن له بالمبيت عند النسوة في الحنفية ليلة كل بضعة أيام. لاحقاً توالى أنباء متضاربة عن الأمر، قيل له ان الباشوات إبراهيم وسعيد وعباس، تداولوا حول ذلك وثبت لديهم هروبه من مصر، حيث ان منزل نسوة الإمام بجواره فناء به عدد من الركائب، وجدوها ناقصة ستة رؤوس، والخادمت أبحرن الحرس انه متوعدك، ولن يستيقظ إلا بعد أذان الظهر ليصعد معهم للقلعة، وبعد العصر قالوا لهم انهم لم يجدوه في فراشه. بعد أيام ورد نباء ارسال ثلاث فرق للبحث عنه، احداها من رجال إبراهيم باشا، أسرعت نحو الدرب المؤدي للآديبية، حيث فرضة المراكب المتجهة جنوب القلزم نحو جدة. والثانية من طرف أخاه سعيد باشا، سارت جنوباً في الصعيد باتجاه ميناء عيذاب، الواقع قبالة رابغ حيث تتجه القوافل منه شرقاً نحو نجد. والثالثة أشرف عليها أتباع ابن أخيهم عباس، تبحت في احتمال هروب فيصل عبر طريق البر، من الريدانية شرقاً نحو سيناء ثم عقبة أيلة، وبعدها الانحراف جنوباً إلى تبوك. لكن الفرق الثلاث عادت خالية الوفاض، حيث لا أثر على خط سير الإمام في مغادرته مصر، مما جعلهم في ورطة مواجهة الباشا الكبير بفشلهم. بقي العم أكثر من شهر في قلق، يدعو الله ان لا يكون في الأمر مكيدة، باستدراج الإمام إلى مكان منعزل والفتك به، بخاصة أن ولده عبدالله واثان من قرابته اختفوا معه. لقد رتب أموره على نحو يجعله يتلافى لقاء الباشا في أرض النعام، وأمضى جل وقته منشغل البدن في أعماله وعلاجاته، أما ذهنه وخواطره فمشغولة مع تأخر عودة قافلته من نجد، ومع تأخر نباء ذهاب الإمام فيصل للمجهول. ذات يوم جاء مندوب من شحاتة، يطلب منه الحضور عندهم قبل العصر، ولما وصل هناك لاحظ جلبه غير معتادة، ورش للمياه من القرب في بعض الأماكن ليسكن الغبار، وهي علامات استعداد لقدوم الباشا عباس. الذي بعد ان أنهى جولته مع الخواجات، تقدم نحوهم وتحدث مع رجاله هناك، ثم تشطر مع اثان من مرافقيه واستدعى العم، واتجهوا في مسيرة نحو قطيع من الغزلان المستأنسة. بداء يسأل عن أحواله وغيابه، فرد أنه يحضر أكثر من مرة كل جمعة، لكنه للأسف لم يصادفه وانشغل خاطره مع أموره في الحوامدية،

ويساوره القلق على قافلته المتأخرة منذ شهرين. نصحه الباشا برقة ان لا يستولي عليه التوتير، حيث أحوال المناخ مضطربة، كما ان السفر مع المواشي أمر شائك ومعقد، وأشار إلى قطيع منها بأن احضاره استغرق قرابة السنة، حيث اضطر عماله من النوبة للسفر جنوباً حتى الحبشة لجلبه لمصر. على حين غرة التفت الرجل نحوه، وسأله عن أخبار الشيخ فيصل، وحملق في وجهه ليتعرف على ما في خاطره، فرد عليه العم مستفسراً فقال "إمام العرب اما انه مختطف أو هارب" وربما أنه في "غيابة الجب" مكبلا. فقال الباشا بل هو حيث يحب فقد وصل القصيم، البلد الذي عاش فيه أبي احمد طوسون عدة شهور، وعقد فيه اتفاق السلام مع عبدالله بن سعود، وهو حيث أحب ان أزوره وأرى مكان ملحمة والدي، ونضاله لتأمين طرق الحج والتجارة. وذلك بعد ان يستقر الشيخ فيصل في نجد، ويؤدب الطاغية ثنيان لما قام به من غدر، ضد سيده وولي نعمته "عزيز مصر" فبعد ان زوده بالمال والسلاح والذخيرة، انقلب عهده وأبى القيام بما التزم به، بل ويؤذي جنود مصر المتبقين هناك. كانت تلك أول مرة يسمع الباشا يطلق على جده ذلك اللقب، الذي ذكره بعض الخدم في معرض حديثهم، وقد ورد ذكر امرأة عزيز مصر في كتاب الله، لكن الملك أعلى منه قدراً فهو من قال "إنك اليوم لدينا مكين أمين" وهي أمور لم يحرص العم على الخوض فيها، بل لا يكف عن دعاء الله ان يسبغ عليه السلامة. بعد ذلك سأله العم عما إذا كان الباشا الكبير يعلم عن رحلة الإمام للقصيم، فأجابه باقتضاب انه "لم يأمر بها ولم تسوؤه" فشعر بارتياح، حيث اطمأن على سلامة الإمام وصحبه. وتوقع ان السديري الذي سبق ان كاتب الإمام، لما فصله الأمير خالد من عمله، قد خرج مع المسلحين من لغاط أو جلاجل لتلقي الإمام، وتمنى لو ان أهله في الحابر ونعام وليلى، قد خرجوا أيضاً لدعم نضال استعادة ملك الأباء والأجداد.

انصرفت عن العم زيد بن عبدالله بعض همومه، ووجه اهتمامه وفكره وجهده لمتابعة أعماله، ومشاكل أهله في الحوامدية، حيث لا يكاد يمر يوم بدون مشاغبات بين الجيران والقراية، يجري فيها تبادل السباب والإهانات بل والضرب، وهذا ما دفعه لتقليل زيارته للجيزة، والبقاء في ملكه بالمطرية مع تجارته ودوابه. ذات يوم وهو في أرض النعام يتابع أملاك الباشا عباس، جاء أحد عماله يدعوه للقاء رجل جاء من الأزبكية، وقد رفض الحرس دخوله بلا تعريف، فتوجه للخارج لمعرفة ما لديه، فتلقى منه التماس من أحد وجهاء الوشم ليتناول معهم العشاء بعد عصر الغد. وجد هناك "أمة من الناس" ملأوا المكان، لكن المضيف قام للسلام عليه وافسحوا له مجلس، وتعرف على بعض القوم اليماميون وآخرون مصاروة. لكن ما لفت انتباهه رجل في مقتبل العمر، يجلس متوجعاً وقد انتفخت بطنه من الجهة اليمنى، وكست بشرته صفرة فاقعة وكذلك عيناه، يرافقه أحد قرابته يعضده كلما لزم، وأخذ يعتصر ذهنه عما إذا كان قد شاهداهم من قبل. لما بداء يأكل في ألم تذكر أنه قد رآه في الحريق قبل نحو خمس سنوات، وكان ذلك في وليمة مبسطة أقامها جارهم الكثيري، وقد أمره والده باصطحابهم للحلة عند

أبو شنار، الذي يعمل في الطبابة ويسمونه الحكيم. توجه العم لهما وعرفهم بنفسه، حيث كان قبل سنوات صغير السن مختلف الملامح، وتعرف عليه الرجل أما المريض فمشغول بحالته. تبادلوا أطراف الحديث وعلم أنهم يزمعون الذهاب إلى دمنهور، وينتظرون أحد القرابة ذو علاقة مع أحد الباشوات، لكي يصاحبهم إلى هناك حيث أضناهم البحث عن العلاج طيلة عدة سنوات. قال أحد الحاضرين ان ما يعانيه الشاب هو تجمع مائي حول الكبد، ولكن أكثر العامة يسمونه مبطون، والكي لا يعالج هذه الحالة، بل يوجد لها بعض الأعشاب والبذور، تساعد في التخلص من المياه المحتجزة في البطن. نصحهم آخر بعدم البقاء في ذلك الحي المكتظ بالسكان والبهائم، وعليهم السكن في منطقة جيدة الهواء ريثما يحضر رفيقهم، فعرض عليهم العم الحضور للمطرية. هناك رتب لهم العمال مكان للجلوس وآخر للنوم، وفي اليوم التالي قام الشاب يسير منفرداً، وقد تناقص الانتفاخ الباطني لديه، لكن خاله قال ان هذه طبيعة مرضه، فحين تبدل الإقامة والماء والهواء تتحسن حاله، لكنها تعود لطبعها أو تنتكس بعدة مدة تقصر أو تطول. الشاب من المغايرة (آل مغيرة) في الأفلاج، وخاله كثيري (من الكثران) اسمه راشد ويكنى (أبو عيسى) وكلاهما من لام المتفرعة من طيء من قحطان الواسعة، المنتشرة في العراق والشام وفارس ومصر، وبني كثير وقعيط وفيحان مقرهم الأساس في الأحقاف، بين عُمان وحضرموت والربع الخالي. والكثران يتواجدون في نجد منذ قرون بعيدة، وموطنهم في اليمامة من العمارية شمالاً حتى اللددام جنوباً، وهم يعيشون في تآلف مع بقية العشائر العدنانية والقحطانية، لا يحبون المشاكسات لكنهم قد ينساقون في المجاملة مع بعض المتعاليين، ويقعون في أمور سيئة نتيجة ذلك. أثناء تناول عشاء العم الذي دعا له بعض من أهل المطرية وأرض النعام، وغالبيتهم من المصريين تساءل أحدهم عما أصاب بطن الشاب، فرد عليه العم انه متوَعك قليلاً وسيتوجه للعلاج في دمنهور، فسارع متطفل آخر بالقول إنها بلدة خراب بعد ان تمردت على نابليون فدمرها، لكن ثالث رد انها بعد أربعين سنة عادت مزدهرة. فقال له لكنها بعيدة بجوار الإسكندرية، ويوجد طبيب حاذق في المنوفية القريبة، قد يشفى على يده مثل الكثير قبله، فرد الجد إن قريب الخال يعيش في مصر منذ عشرين سنة، وهو يعرف البلاد جيداً والشفاء من الله وحده مع توخي الأسباب. نقل الحديث بعد ذلك لأحوال الإمام فيصل، ولم يحدثهم بما أفضى إليه به عباس، لكن تبين ان الجميع يعلمون انه قد خرج بتدبير من الباشا الكبير، وقد وصل للديار السعودية مع قرابته، لكن لا أحد يدري عما فعله الثنيان حيال ذلك.

بعد صلاة المغرب جلس نفر قليل يتسامرون، وقال لهم الكثيري ان أحد قرابته جاء مصر، مع الإمام عبدالله بن سعود قبل ربع قرن، ولم يذهب معه لإسطنبول بل تزوج وسكن قرب الحنفية. ثم غدا من حاشية ذرية محمد بن سعود، وقد أمره الإمام فيصل للتوجه مع عتيبي وسهلي، وخمسة من المصريين إلى فرضة دمياط، حيث بقوا هناك متخفين في ثياب المغاربة ليومين. بعدها وصلهم فيصل يصاحبه ولده وابن عمه

وقريبه، وثلاثة آخرين قادمين من بولاق أبو العلا متخفين، وفي الليل اصطحبوهم في مركب بحري متوجه نحو سوسة القيروان. لكنه بعد مسيرة ساعتين لاحظ انحرافه للشرق، وكان البحر هائجاً بسبب توجيه الله للرياح ثم نوء الشبظ، ولما نزلوا للبر علموا أنهم في صيدا الشام. هناك توجهوا جميعاً لمنزل شيخ جليل، احتفى بالإمام قائلاً "لا تخف نجوت من القوم الظالمين" وبين ان تلك السواحل الشامية، كانت قبل بضع سنين تحت سيطرة سفن إبراهيم باشا أثناء حربه مع السلطان محمود. لكن بعد اتفاقية لندرة ومحاصرة بريطانيا لسفن مصر، منعوهم من الاقتراب من مرافئ الشام. نصحه الرجل ان يكمن في دمشق، ريثما يعود مرسوله من سدير، حيث هي أكثر أمناً من صيدا وأقرب لبلاده، لكن المشكلة ان هناك نزاع بين نصارى الجبل ودروزه، والدرب لجلق غير آمن للغرباء. لذا فقد نصح بالتوجه شمالاً إلى بلدة الأوزاعي (إمام التابعين) حيث يلتقون مع رجل يعرفه، ويدبر لهم ركائب صعود الجبل، ومرافقين على علاقة مع أهل القرى لتفادي لصوص الطريق. هناك حثهم المرشد على سرعة التوجه شرقاً حيث هناك اضطراب في الهواء، لكن الدواب كانت ضعيفة والدرب للأعلى غير ممهد، ومروا على قرية "بُعل شامية" ثم أبو حمدون، ذات البساتين الوارفة رغم برودة الهواء، لكنهم شاهدوا هيجان أمواج البحر غرباً فحثوا السير صاعدين. ولما جن الليل كانوا في ضواحي بلدة عنجر، فاشتدت الرياح وهطل المطر والثلج بغزارة، وأمساوا في حالة كرب وعناء، لكن ركابهم احتوى خيام خفيفة، ومستلزمات شب النار والطبخ. في ضحى اليوم التالي هدأت العواصف، ولم وصلوا أعلى جبل لبنان (ظهره) بدأت مرحلة النزول، السهلة على الدواب الهزيلة لكنهم في خطر الانزلاق، ثم شاهدوا في الأفق الشرقي أرض سهلة منبسطة، قالوا لهم إنها البقاع حيث مدينة زحلة، وعنها شمالاً على مبعده توجد معابد يونانية ورومانية قديمة، فيها أصنام للإله "بُعل الكبير" الذي ورد في الذكر الحكيم انكاره "أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين" لكن البعض للأسف ما زالوا يوقرونه. كانت الشعاب تجرى سيولها من مطر البارحة، لذا أمضوا ليلتهم في أحد بيوت البقاع، وكان مرشدهم شيعي لكنه ذو كرامة وشيمة، يحرص على سلامة وراحة الركب. عند طلوع الشمس توجهوا شرقاً، حيث تلال متوسطة من خام النورة (جير وجص) تشبه تلال المجزل في اليمامة، تمكنوا من اجتيازها بسهولة وسرعة، حتى شاهدوا على الميسرة جبال غير ضخمة، قال مرشدهم انها منابع نهر بردى قاسيون والهامة، وفيها جَلَقَ عاصمة الغساسنة لما جاءوا من اليمن، أما بلدة قماش الدمستق (دمشق) فهي أسفل بردى، فقال الإمام إن الأمويين أرسلوا قوة من الشرطة لحماية السبل في اليمامة، وقد بنوا قلعة صغيرة سماها قائدهم (جلق) على بلدته، وجاء دهام بعد مئات السنين وبنى حصنه في الرياض جنوب انقاضها.

قال الكثيري ان قائدهم أوصى ان يتجهوا إلى منزله عند باب توما، للاستراحة وتناول الطعام لكن الإمام أصر على التوجه نحو باب مصلى، وهناك اتضحت لهم حكمة ذلك الاختيار. فقد كان جواره مسجد كبير وميدان واسع، فيه كثير من الإبل

والخيل الواردة من جزيرة العرب، ويعج المكان بالعربان بملابسهم الفضفاضة، ولهجاتهم المميزة عن لسان الأشوام. تلتئم الإمام ودخل المسجد متنكراً، وأرسل أخاه للبحث عن دار ملائمة، وولده مع بعض الأعوان لتلمس السوق، ومعرفة كبار تجارها من اليمامة، وذهب اثنان من الخدم لمعرفة أنباء اليمامة وابن ثنيان. حطوا رحالهم في منزل بسيط مرتب، وجاء ولده عبدالله بأنباء عن أربعة من كبار تجار نجد، تقاولوا مع عمالهم لشراء بعض الخيل العمانية ليعودوا بها للعراق، كان منهم دواسر وسبعان وحوالد. لكن أهمهم رجال من بريدة (آل بوعليان الدريبيية) أحدهم حجيلاني وآخر من العرفج، تبدو عليهم شمائل النخوة والشهامة والقوة، ولديهم عمال كثيرون ودواب فتيية وملامح ثراء. أرسل الإمام ابن عمه للتعرف على السبيعي، وعرض شراء بعض الركائب منه، وعاد بالقول ان الرجل من آل سُليم في عنيزة، معه قوم من العقيلات تجار نجد، ولما حادثه أخذ يتفرس في ملامحه وثيابه، وقال ان وراءك خبر ما فأفصح لي عن غرضك، فطلب منه ان يرسل مندوبه لمنزلهم القريب ليلتقي بمعزبه، لكن الرجل أبى إلا ان يأتي بنفسه مع عماله. فلما دخل وجد الإمام جالس بردائه العربي، فشبه عليه أنه من آل سعود، فلما عرفه انهال عليه يقبل رأسه وكتفه، ورحب به في دارهم لكن الإمام اعتذر منه، حتى لا ينتشر خبره ويبلغ الرياض سريعاً. أثنى السبيعي على ذلك وأفاد ان أهله سيرسلون الطعام بعد الغسق، وأخذ يوجه اللوم والتفريع لابن ثنيان الطاغية، لما فرضه عليهم من ضرائب ورفضه مساندتهم لما تخاصموا مع الرشيد في حائل، الذي بطش بهم وقتل كبارائهم وأخذ حلالهم من دبش وأموال. لما حل الظلام عاد الرجل ومعه خدم أنزلوا طعام طيب وافر، أكل منه الجميع وتسامروا لانتظار فريضة العشاء. سأل الإمام عن أهل ذلك السبيعي في الميدان، فقال إنه هنا مع أخاه الأكبر للتجارة، وهو الآن في حمص وسيعود بعد أيام، حيث توجد هناك بضائع جيدة من حلب وتركيا. بعدها انتقل كلامه لسبب ابن رشيد الذي قتل ونكل بكثير من جماعتهم، لكن الأخ الأصغر للإمام (الأمير جلوي بن تركي) تضجر من ذلك، فرد عليه بحدة ان أهل عنيزة أخطأوا مرتين، الأولى انهم ناصرُوا أهل بريدة خصماءهم منذ سنين، وكان الواجب الترفع عن تأييدهم ضد أهل حائل، في أمور لا ناقة لهم فيها ولا جمل. والثانية أنهم خرجوا من ديارهم وتوجهوا لبقيعاء، في مضمون إمارة الرشيد الذي لن يتساهل مع مهاجميه، وإن كانت بينهم مودة سابقة كان الواجب عليهم رعايتها، وعدم الانسياق وراء تحريض شيوخ بريدة من تميم أو العنوز، الذين عُرف عنهم الغدر منذ زمن بعيد، لذا فقد نالوا جزاء سوء تدبيرهم. رد الرجل بأن الغدر لدى ابن رشيد، الذي قتل أميرنا يحيى؟؟؟؟؟؟؟؟ الذي قبل ان يكون ضيفاً عنده، ثم غدر به وأمر بسجنه وقتله، وعند ذاك أشار الإمام بيده فسكت الاثنان.

جاء أخ السبيعي من حمص وهرول لمقابلة الإمام، حيث اقترح مغادرة الميدان الذي يعج بأهل نجد، ولو فطن له أحدهم فسيلبغ نبأه الرياض، لذا أوصى بالذهاب إلى بناية قرب منڈنة الشحم، جنوب الجامع الأموي حيث سكك ضيقة فيها خليط من السكان،

بعضهم نصارى ويهود لا يبالون إلا بشؤونهم الخاصة. ولما قال له الإمام إنه قد أرسل رجل إلى جلاجل، للقاء الأمير أحمد السديري وحته للتوجه مع حشد من المسلحين، ليلتقيه في دومة الجندل بعد عشرة أيام، حذره من التراخي في الأمر. حيث السديري التحق بخدمة ابن ثنيان، بعد ان عزله خالد بن سعود، لكنه لم يعينه في الإمارة بل أرسله ليتولى الجباية في القطيف، وسوف لن يتمكن من حشد مسلحين، أو مناهضة زعيمه الجديد القوي، لذا اقترح الذهاب معهم إلى عنيزة، حيث سيجد النصر والرجال المخلصين. خلال أيام جهز السبعان بضاعتهم وركابهم، وتوجه الإمام وصحبه مع تلك القافلة جنوباً، صحراء الشام قاحلة وكريهة، لا شجر ولا عشب سوى نباتات رديئة مثل العقول وغيرها مما لا تستسيغه الركائب، وعلاوة على ذلك ساءت خواطر الركب، ونشأت ملاسنات وشجار بين البعض، بخاصة الأعوان والخدم حول أمور تافهة أو ظنون أئمة. شعر الإمام بالغم من متابعة ذلك، وبينما هم مستريحون في خيمته مع قرابته وخواصه، أعرب البعض عن نفورهم من صحبة القافلة، وقال أبا كثير انهم سمعوا الإمام يتضجر من ذلك. وقد أوصاه أخاه وولده بعدم الركوب على أهل عنيزة، الذين قد يتخلون عن نصرته إذا اقتربوا من بلدتهم، كما ان مرافقيه من مصر أتباع عباس باشا، أخذوا يتململون من المسير. كان اثنان منهم أحدهما أوزبكي والآخر تركماني، يطالبون باستلام ما التزم به الإمام، وانهم لن يسيروا في النفود بل لابد من عودتهم، مع ما تعهد به للباشا، لذا فقد حثه أخاه الأمير جلوي على الحذر من السبعان. فكلفه ان يحدث كبيرهم لإقراضه عشرة آلاف فرانسة، ليعودوا بها لمصر لقاء تدابير خروجه منها، فأخبره السليم ان مالهم في المنقولات معهم، وسيدفعون لهم ذلك فور الوصول لعنيزة، لكن الأوزبكي رفض ذلك حيث أمره الباشا بعدم تجاوز النفود. تناقش الإمام مع قرابته بشأن تفادي تلك الورطة، وألح عليه جلوي بما عُرف عنه من إقدام، ان لا يدخل عنيزة في موكب ضعيف مع المتاجرين والحمالين، كما ان ابن سليمان السبيعي صاحب السطوة في عنيزة، وليس للإمام فضل عليه بل من وضعه في الإمارة خالد. أما أمير جبل شمر فله فضل تعيينه أميراً عليها، وخلع الإمارة من قرابته (آل علي) ومنحه إياها، وهو منذ سنوات طويلة ممسك بحزم بإمارة حائل، ولديه قوات عديدة استطاع ان يقضي بها على أعدائه من آل الدريبي في بريدة، وينكل بها السبعان الذين تعاونوا معهم. وأيد الأمير عبد الله ابن عم الإمام (إبراهيم بن عبد الله) ذلك الرأي، وأوصى ان تُطلب المعاونة من الله، ثم من لديه الرغبة والقدرة على ذلك، وأضاف ان بقية أمراء بريدة من آل مهنا وأبا الخيل وعشيرة عنزة، لم يكنوا الولاء والتقدير الكافي للإمام او والده قبل ذلك، وهم متقلبو الولاء لمن في الرياض، بل وضد بعضهم البعض يتقاتلون في النزاع على مقعد الحكم. لكن ما أثر على خاطر الإمام هو ما قاله ابنه عبد الله، من احتمال ان يقول كبار أهل عنيزة للسليم "ما هذا الذي جئنا به؟" وتقع الورطة الكبرى، ورغم صغر سن ولده (16 سنة) إلا ان قرار الإمام تبدل في تلك الساعة، بخاصة لما ذكر أحدهم قوله سبحانه "سيعلمون من هو أضعف ناصرًا وأقل عدداً" وكان هذا ما أبلغه أحد الخدم المقربين لأبا كثير.

في الصباح أخبر الإمام القصمان أنه سيتريث قبل دخول الحرة، وبإمكانهم التوجه سريعاً لعنيزة، وسبوا فونهم في دومة الجندل على الحافة الشمالية للنفود، خلال عشرة أيام للنظر فيما عليهم عمله. في اليوم التالي عمل بمشورة الرفاق، وأرسل ابن عمه مسرعاً إلى الجبلين، معه خدمه وكتاب مهور من الإمام، يعرفه ابن رشيد من الأيام الخوالي، كما أرسل أحد أعوانه إلى الغاط وجلاجل، لتلمس حقيقة أحوال أحمد السديري. استراح البقية ليومين ثم مشوا الهويينا بين تلال الحرة، ووصلوا أطراف السرحان ثم الجابية في اليوم العاشر متخفين كتجار، ولم يروا أثر لأحد من آل سليم، وبداء التركماني يتضجر ويتوعد بعدم دخول النفود، ووجوب عودة الجميع لمصر حسب أوامر الباشا. جاء الفرج في المساء لما حضر أحد الرفاق من الدومة، مبشراً بوصول القوم من حائل، حيث رحب بهم الأخ الأصغر للأمير عبد الله بن رشيد (عبيد) الذي تعذر لعجز أخاه عن القدوم، حيث توعدك بعد مسيرة يوم من عاصمته، وبقي ينتظرهم في "خطة" جنوب النفود. كان بصحبته أكثر من مائة مقاتل بسلاح ثقيل، واثنى عشر ألف فرانسة منها اثنان للزوم الإمام، والبقية للمصريين الذين اعترضوا على المسكوكات. فقد ادعوا انهم لن يستلموا سوى دالر ملكي نمساوي (ماري تريزا) سكة أصلية، حيث يخشون من ريالات (دولارات رويال) غير أصيلة تنقص فيها الفضة، لكن عبيد بن رشيد زجر فيهم بخشونة، وإذا لا تروق لهم تلك المسكوكة فليعودوا لمصر. ولما شاهدوا كثرة الجند قرروا المغادرة مع ما توفر، وأكرم الإمام الجميع بريالات فضية وليس بيزات، كما عاد معهم لمصر بعض النجديين ممن لديهم أهل هناك.

بعد أخذ العلم برواية رجل آل كثير، والتفكر في بعض ما ورد بها، ودعه العم مع مريضه في اليوم التالي، وأخذ يتلمس لقاء عباس باشا، ليسمع منه ما قد يفصح عنه، على خلاف ما كان يعمل به سابقاً من تجنب لقائه. انقطع الرجل عن الحضور للسرايا أو أرض النعام لعدة جُمع، كان العم فيها شديد القلق على ما يجري للإمام فيصل، سواء في حائل أو القصيم أو حَجْرَ اليمامة. والعامل الذي أرسله للعتبة والأزبكية والحنفية لم يعد بخبر مفيد، وبقي يترقب عودة قافلته من الحريق، فقد تأتبه بأنباء تطمئنه على أحوال نجد، وما قد يواجه الإمام فيصل من صعوبات في ظل تلك الفتنة. جاءه نباء حضور عباس باشا لتفقد أملاكه، فأسرع إليه حيث تبادل الحديث حول أوضاع الحيوانات في أرضه، وسبل تحسين النسل وتفادي كثرة الوفيات بينها. بعدها سأله الرجل عما ورده من أنباء الشيخ فيصل السعودي، فأجابه بانشغاله عن الذهاب للفسطاط، ولم يعد بيالي كثيراً بما يشيع بين الناس من أقاويل، وإنما يهمله الاطمئنان على سلامة إمامه بعد اختفائه الغامض، ولم يشاء ذكر شيء عما رواه له "أبو كثير" من تفاصيل. فقال الباشا ان عليه نبذ القلق كلياً، فقد دخل فيصل الرياض والثنيان مقتول جزاء غدره بوالي مصر. وأكد ان قلة من جنود مصر ما زالت في نجد، وبعضهم يرسل لهم الأنباء مع نجاب البريد، وقد استقرت الأمور لفيصل، الذي بقي عليه ان

يلتزم بما تعهد به، خاصة عدم التحرش بالإنجليز حيث مصالحهم في بحر فارس، القريب من بلاد الهند درة تاج فكتوريا، ومنع قراصنة مسقط وعمان من دخول بحر الهند. كما عليه عدم مساندة عسير في عصيانها للعزير، واستمرارهم في التأثير على تجارة البن اليمني في مخا، عن طريق نقله بالجمال لمينائهم في القنفذة. لما رأى الباشا يتطلع فيه لسمع رأيه شعر بالخرج، وتقادى ذكر الإمام فيصل بالتساؤل عن حاكم إسطنبول، وما إذا كان هو المهيمن على مُخا وبحر فارس؟ فأجابه الباشا ان ذلك كان زمن محمود، الذي لم يُقدّر حق مصر ومكانتها، بخاصة جهود أبيه احمد طوسون باشا في نجد والحجاز، وجده الباشا الكبير محمد علي في المورة. لكن الآن وفي وجود خليفة النبي وسُلطان المسلمين، عبد المجيد خان تغير الأمر وتحسنت العلاقة. وقد أخبرنا الصدر الأعظم انهم يجهزون فرمان، لتعديل منصب والي المحروسة ليكون مسماه عزير مصر. لما رأى الباشا مازال يستحنه للحديث، خشي ان يشك في نواياه وأنه يضمركوه، فقد حذره الكثير من شدة ريبته في كل من حوله، لذا عمد للكلام في الأبعاد. قال لعباس يا سيدنا معلوماتي قليلة، لكن الإمام البوسعيدي في مسقط لديه حشود مسلحة، وفي البحر عنده سفن ضخمة مزودة بالمدافع، وما عسى الشيخ فيصل! يستطيع القيام به ضده، وبخاصة ان إمارته وقفت ضد سعود بن عبد العزيز، وولده عبدالله (صاحب الماسة الدرعية) وتمكن من صدهم عن البريمي. أما شيخ عسير عايض؟؟؟؟؟؟ بن مرعي، فتعلمون حصانة جباله وشدة بأس رجاله، وقومه منذ زمن يتولون تجارة القهوة، وهي المورد لمعيشتهم ويمكن فرض مكوس عليهم بدل حربهم. فرد بالقول ان جده لا يحتاج من يحارب عنه، لكنه لا يتساهل مع من يدعم العصاة لأوامره، فركن العم للسلامة ودعا الله ان يحفظ الباشا وجده.

ارتاح خاطر العم بمعرفة ان أمور الإمام فيصل طيبة، ولم يعد يشغل باله سوى أمور أهله في الجيزة، وأهله في الحريق بخاصة ان قافلة جماعته تأخرت كثيراً عن المعتاد. في أحد مساجد باب الخلق وهو في طريقه ليركب مُعدية، ليجتاز النهر نحو الحوامدية التقى أحد قحاطين الحصاة، كان يتردد من الرين على الحريق للتبضع، وألح عليه لمصاحبته لمنزله حيث حضر أحد أصهاره من العارض. حدثهم الرجل عما جرى عند وصول الإمام للقصيم، فقد بلغت الأنباء الثنيان الذي سارع إلى هناك، لكنه وصل متأخر. وقد رحب بني ثور زعماء عنيزة بالإمام، وقد تناسوا ما جرى مع ابن رشيد قبل سنتين، ورحبوا عن بكرة أبيهم بالإمام وأعدوا الرجال والمال والعتاد لمناصرتهم، والتوجه معه للرياض لاستعادة منصبه. أما أهل بريدة فقد انقسموا حيث رفض بعضهم الذهاب مع الإمام، ما دام معه ابن رشيد الذي نكل بهم في بقيعاء، بينما قال البقية انهم سيتوسطون بين الإمام وقريبه الثنيان، وأكدوا ان الرجل سوف يتنازل عن الحكم له فور لقائه، حيث قال لهم انه انما كان يحكم مؤقتاً لحين عودته. في اليوم التالي وصل وفد من الغاط وأكدوا لفيصل ان الأمير أحمد السديري لما بلغه نباء قدومه، جمع حشد ضخم من الرجال والسلاح وغادر مقر إمارته في القطيف، وسيصل لجلال بعد أيام

ودعوه للتوجه معهم إلى هناك. حدث ارتباك وتضارب في الآراء، لكن ابن رشيد أوصى بعدم التباطؤ، حيث الثنيان في الوشم يعد تجهيزاته للقتال، وحسم الإمام أمره بأن يتوجه أخاه جلوي بن تركي، مع عبيد ابن رشيد بمعظم الجيش للوشم لمنازلة الثنيان، بينما يسير هو مع البقية نحو سدير، ليلتقي مع الجنود ويذهبوا جميعاً نحو الرياض. بين لهم الصهر ان أهل الوشم كغيرهم تخلوا عن الثنيان، وقد كانوا يدعمونه من قبل لأنه أفضل من (الأفندي) خالد بن سعود، أما وقد حضر الإمام "فلا مقارنة مع الفارق" الشاسع، لذلك تفهقر أبو ثنيان لعاصمته الرياض، وتحصن في قلعة دهام القديمة بعد ترميمها وتدعيمها. ووصل بعده جلوي وعبيد مع حشد من المسلحين وحاصروه، ينتظرون وصول الإمام من لغاط، حيث التقى هناك بالسديري ومعه قوات غفيرة، بينما عاد عبدالله بن رشيد لحائل. توجهوا بعدها للمحمل ووجد الترحاب والدعم، ثم انتقل من حريملاء إلى معكال، وخيم في طرف نخيل الرياض الجنوبية. لم يصمد ابن ثنيان تحت الحصار سوى عدة أيام، حيث انحاش عنه أكثر المرافقين، ولما حاول مع اثنان من خدمه الهروب تحت جناح الظلام، وقع في الأسر وسجن في مكان منعزل لمدة قصيرة ثم مات.

بعد ذلك استقرت الأمور في وسط البلاد، وتوافدت حشود من الناس من كافة البلدات لمبايعة الإمام فيصل، وقرر بعدها الالتفات للساحل الشرقي، حيث أعاد تكليف السديري للعودة إلى الدمام لضبط أحوال القطيف، والانتباه لأحوال البحرين وسكانهما بخاصة الشيعة، الذين اطمأنوا بعد قلائل الخمس سنوات الماضية. في الشهر التالي وصلت قافلة العم زيد متأخرة لكنها ثرية، فقد تحسنت صحة الدواب بعد الغيث، وطابت المراعي بعد انتهاء القحط، كما رخصت الأسعار ما عدا الضأن الذي ارتفعت أثمانه، لكنه سمين ولحمه أطيب وإقطه جيد. ورغم التخوف من فشل نقل الدواب غير المستأنسة، فقد كانت النتائج أفضل مما توقعه العم، رغم هرب ونفوق البعض من النعام والوعول والظباء، لكن ما وصل كان كافياً لسد الغرض. وقد شرح له العمال مقدار الجهد المبذول لجلب الدواب من أماكن بعيدة عن الحريق، وكيف ان والده بذل كثير من الجهد والمال، لتجهيز أقفاص لفراخ النعام، ومقايض لربط الوعول مع الحمير والخيل لمنعها من الهرب. كم رتب والده عربات تشبه ما تركب عليه المدافع، لها عجلات ضخمة وتجرها الثيران والبغال القوية، فيه الأقفاص وهذا ما أدى لبطء المسيرة، مع ما أصاب الدروب من انقطاع بسبب السيول، لكن الرخاء الذي عم أجزاء كبيرة من جزيرة العرب، جعل الأمور أسهل فحمد العم خالقه على التيسير. ولما زار عباس باشا أرضه القاحلة، وشاهد تلك الأنعام دخل الحبور قلبه، ومنحه قدر جم من المال رفض استلامه، لأن تلك هدية من والده وجده للسيد الباشا. وبعدها زاد توقيره للعم وأسند إليه الكثير من الأعمال، وأجزل له العطايا كما منحه مسكن بجوار السرايا، حتى لا يضطر للسير ليلا ليعود لمنزله في المطرية، ثم منحه جاريتين احدهما قوقازية يتسرى بها، وأخرى حبشية تخدم المكان وزواره. طابت الحال للعم ولم يكدر خاطره

سوى نباء وفاة الأمير تركي الهزاني، الذي كان له التأثير الطاعي في كبح جماح البغاة، سواء كانوا من البادية أو سكان البلدات القريبة، بل وحتى من قرابته حيث كافح الفساد. ومن المعلوم انه قبل توليه الإمارة حدثت في الحريق فتن كريمة، وقتل القوم بعضهم البعض للتنافس على منصب أو مال، ونظراً لما يحيط بتلك الأمور من حساسية، فقد كان أبي وعمه وجده ينزهون أنفسهم عن الخوض فيها. ويمكن لمن يرغب منكم أيها الأحبة معرفة شيء عنها، الرجوع للروايات المكتوبة أو الشفهية، وبخاصة في حقبة إمارة آل عثمان الهزاني وما جرى لهم. فقد تشرّد بعضهم وصودرت أملاك آخرين، ونُفي الشاعر الغزلي عبدالمحسن للأحساء، وعُزلت قرابته عن شبيخة جماعتهم، وسغكت بعض الدماء المحرمة. لكن الأمير تركي بعد توليه الأمر أحسن التعامل معهم، وعاد كثير منهم للحريق حيث منازلهم وزراعتهم، وبقي الجميع في كنفه طيلة مدة إمارته التي بلغت نحو نصف قرن أو يزيد. ولم تحدث في تلك الفترة إساءات لأحد، سواء كانوا من جماعته أو غيرهم، وأدى استتباب الأمن ولجم أطماع الطغاة، إلى رخاء في المنطقة حتى أصبحت سوق تجاري رائج، يخدم كافة المناطق المجاورة. بل وغدت ملاذ آمن لكثير من الصُناع والحرفيين، الذين يعملون في منتجات المعادن والخشب والصياغة، وفي دبغ الجلود وتجهيز القماش والثياب. ومن المعلوم انه في زمن الإمام عبدالعزيز بن محمد بن سعود، ثم ولده الإمام سعود مرت على نجد فترة ازدهار مالي وفير، حيث توسعت أطراف إمارة الدرعية وكثرت إيراداتها، وزاد جلب الموالى والعمال من البلوش والحبوش، الذين لجاء بعضهم للقرى التي لا يضامون فيها، وتसान دمائهم وأموالهم. وقد كان الأمير تركي يعمل على تجنب نفسه مساوئ ما يحدث في الجوار، فقد ارتبط بعلاقة وثيقة مع حكام المنطقة مندوبي آل سعود، وبخاصة آل عفيصان في الدلم، إضافة لعلاقته الشخصية ببعض أفراد الأسرة، حيث زوج بعض قريباته للأمرء. كما كان يكثر الزيارة للدرعية والدلم ثم الرياض لتقديم الولاء، وإرسال الهدايا من منتجات الحريق، أو ما يجلب لها من الخارج مع القوافل القادمة من العقير والبحرين (القطيف) ومسقط. مما جعل الكثير يحملون له المودة، لكرمه وشجاعته في فرض الأمن ومنع البغاة من قرابته أو غيرهم في تعكير الصفو، رحمه الله وكافة أحببتنا وصالح المسلمين.

كعادتني أيها الأحبة أود ان اتوقف معكم لبرهة، فننتقل عبر الزمان والمكان لإيضاح بعض الجوانب المتعلقة بتلك الحقبة، فقد كانت عودة الإمام فيصل بن تركي لعاصمة بلاده، التي أسسها والده بعد تدمير الدرعية، مرحلة مفصلية في حياة سكان بلدات وسط جزيرة العرب. لقد سمعت في مجالس والدي رحمه الله، في منتصف خمسينات القرن العشرين، نقاشات مستفيضة حول تلك المرحلة، حيث لم تكن هناك إلا قلة من المطبوعات والمخطوطات، التي تسرد أحداث بلادنا أثناء الإمارة الثانية لآل سعود، في الفترة من 1243 حتى 1308 هـ، حيث لم تكن هناك دولة بالمعنى السائد لديكم، إلا بعد ان أسسها الملك عبد العزيز عام 1352 هـ رحمه الله. الجانب الأول من تلك المرحلة

يتعلق بالشخصية المحورية، وهي الأمير عبد الله بن ثنيان رحمه الله (أبو ثنيان أو ابن ثنيان) وهو الذي كان عضيد الإمام فيصل، ولما تمكنت قوات خورشيد من كسر جنود الإمارة النجدية في الدلم، وأخذ الإمام للمنفي في مصر (البيضاء والحنفية والقلعة) بقي مع مندوب عساكر مصر، الأمير خالد بن سعود (الأفندي أو الحبشي) كما لقبه أهل البلاد لسوء تصرفاته، وانصياعه التام لأوامر الغرباء وطباعه المضطربة، ومخالفته لعادات (سلوم) قومه. ولما استنكر ذلك قريبه الثنيان كاد يبطش به، فاضطر للفرار شمالاً ثم استقر به المقام في العراق، حتى صدرت أوامر دولية (لندن) بسحب عساكر الألباني من جزيرة العرب. وبقي خالد وحيداً فأسرع الثنيان عائداً لبلاده ليحكمها، لحين رجوع الإمام من المنفى، فدانت له البلاد سريعاً وفر للخارج خالد ولد أبو شوارب، وحصل على فرمان عثماني من البصرة بتعيينه. وبقي سنتين لحين عودة الإمام كما بينا في السطور أعلاه، وقد كثرت الروايات عنه في مجلس والدي ذاك، ليس بسبب فترة حكمه القصيرة لكن بسبب أحوال ذريته، ولولاهم لما اكثرث به أحد كما جرى لسلفه خالد، الذي انقطعت ذريته وخمد ذكره عند الناس. كان الجالسون يتحدثون تارة عن ظروف موته، لكن النقاش يتركز على نسله الكثيف، وأحوالهم في منتصف القرن العشرين، وما جرى لبعضهم بعد موت والدهم. ادعى أحد الجالسين مع أبي ان الإمام هو من أمر بقتل ابن ثنيان لمحاولته الفرار، فانبرى له على خلاف عادته بعدم معارضة الحاضرين مباشرة، وقال ان الإمام لم يكن في حاجة لسفك الدماء، وقد أعطاه خطاب أمان مع جلوي، شريطة عدم مغادرته مقر الإقامة، ولم يثبت قيامه بمحاولة الهرب. وتحدث آخر ان ملاسنة حدثت بين الثنيان وعبيد الرشيد، وربما أوغر ذلك صدر عبيد فأمر بدس السم له، بخاصة ان الحرس كانوا من أهل حائل. لكن الرأي السائد بين الأكثرية، ان الثنيان مات غماً وهو في الإقامة الجبرية، وبين أحدهم ان الأسير كان مصاب أمراض عديدة، وتصيبه نوبات من الصرع في بعض الأوقات، كما ينتابه شيء من الذهان والتوتر الفكري، حينما تشتد عليه الأحوال والأزمات. ورغم ان مسألة وفاة الثنيان أخذت حيز واسع من النقاش، إلا انني أود عدم التوسع فيها لقلة العبرة، التي هي صلب هذا المكتوب، والزبدة هي ان الأمير توفي بسبب أوضاعه الشخصية، وإذا كان قد قتل فعبيد الرشيد هو المسؤول عن ذلك، حيث كان رجاله هم السجانة.

العبرة الأساسية في حياة عبدالله الثنيان، تكمن أيها الأحبة في ذريته المتسلسلة بعيداً، ومجريات احداث البعض منهم وتأثيرهم على حياتنا! وما سأوجزه لكم هنا هو عن سلالة ابنه عبدالله بن عبدالله، الذي سُمي على أبيه لأنه ولد بعد وفاته، لقد كانت عادة البعض في جزيرة العرب، تسمية الجنين المولود بعد وفاة والده، بنفس الاسم أو بالتصغير مثل صالح بن صالح، أو بالتصغير مثل فهد بن فهد كإحياء للذكرى. لقد كان للأمير عبد الله عدد كبير من الأبناء، البعض استمر في العمل مع الإمام فيصل وأبنائه، وأشار أحد المجالسين مع والدي من ذوي العلاقة بأسرتهم، انهم شاركوا في معارك أو أعمال سياسية، بل استشهد بعضهم في حقبة الصراع بين أبناء الإمام فيصل.

لكن العبرة تكمن في ذلك الأمير اليتيم عبدالله بن عبدالله، الذي رفض قبول الوضع الحرج، الذي دخلته البلاد بعد وفاة الإمام فيصل، والفتن الكريهة التي وقعت فيها الأسرة السعودية، واستمرت ربع قرن سفكت فيها كثير من الدماء، وانتهت بسقوط الإمارة السعودية الثانية، بعد ان تعرض أمرائها للقتل أو التشريد، حتي قيض الله لها أحد حفدة فيصل بن تركي، العبقري الشجاع الذي أسس الإمارة الثالثة، ثم جعلها دولة كبرى بفضل الله، وأوصلتها ذريته لتكون عضو في منتدى أكبر عشرين دولة. لقد رفض عبدالله بن عبدالله ان ينخرط في الفتن آنذاك، ويحيط الغموض بما قام به من جهود، لكنني سمعت في مجلس أبي أنه بعد وفاة أبيه بعشرين سنة، بداء يتصل بمندوبي الدولة العثمانية المسيطرة على المنطقة حينها. ولم يكن في جعبته سوى مناقبه الشخصية الفذة، وأسلوبه الجذاب لإقناع الآخرين بكفاءته وصلاحيته، تأكيداً للقول المأثور "ان يكونوا صالحين فالله يتولى الصالحين" فأخذ يعمل بهمة، وينبذ المشاركة في الفتنة الداخلية بين أفراد الأسرة. وبينما شارك إخوته في الأحداث المؤسفة، سواء كانت بين ذرية الإمام فيصل، أو مع مندوبي العثمانيين في جزيرة العرب، في مكة وحائل والأحساء، فقد اتجه لإقناع القادة بأهليته ليتولى إدارة البلاد، أثناء تلك المحن الكريهة حاملاً معه فرمان تعيين والده حاكم على نجد. ولما أوشك على بلوغ ذلك بعد ان استرد الترك الأحساء، في زمن الإمام عبدالله بن فيصل، تبدلت الأمور في غير صالحه، لكنه أبى ان يدخل في الشتات، كما جرى لذرية بعض إخوته الكبار، الذين بدلوا حالهم والتحقوا ببعض قرى الوشم والقصيم والعارض، بل ان بعضهم أخفى هويته واستكان للعمل في مهن عادية، ينشدون السلامة والعافية زمن الفتن الحمراء. لذا قرر شد الرحال لعاصمة الإمبراطورية العثمانية، وهناك ساعده الله ثم مناقبه الحميدة وذكائه وأخلاقه، للحصول على مناصب جيدة وبلغ رتبة أمير قطاع ثم باشا، ورزق بذرية من زيجات عديدة، لم اعرف إلا ثلاثة منهم بالسماع عن والدي. أولهم هو ولده أحمد الذي درس وأتقن عدة لغات في تركيا، وفور علمه بعودة قريبه الأمير عبدالعزيز للرياض، وتوليه أمورها من مندوب الرشيد، فقد رحل للبصرة ومنها للكويت، ثم عمل مستشاراً وعضيداً له. ثم زاد الاعتماد عليه بعد ان تمكن عبدالعزيز (الملك لاحقاً) من استرداد الأحساء، وكلفه لمصاحبة القوات التركية المغادرة للعراق، وحمائتها من قطاع الطرق والمبغضين للوجود العثماني في بلاد العرب. كما شاهده والدي من على مبعده بينما كان يعمل في ديوان الحسين بالحجاز، وجاء الأمير أحمد الثنيان على رأس وفد أرسله سلطان نجد، لحل بعض الإشكالات بين المنطقتين حول الحجاج والمراعي. لقد علم والدي من رجال السقاف ان ذلك المندوب نال تقدير من التقى بهم، وكان في العام السابق قد صحب الأمير فيصل في رحلة إلى لندن، لمقابلة الملك جورج الخامس (حفيد فيكتوريا) وتعزيز التعاون بين البلدين. حرصاً على البعد عن الحرج تحاشا والدي الالتقاء بهم، لكنه تتبع أخبار الوفد النجدي في مكة المكرمة، راجيا الله ان تتحسن العلاقة بين المنطقتين، ومسرورا لوجود شخص بهمة ونباهة الثنيان. بعد عودة الوفد للرياض علم والدي بحدوث أمور، انتقل بعدها الرجل للهفوف لمدة من الوقت، وتوفي

أثناء قيام الإخوان بحملتهم ضد الشريف، الذي منعهم من الحج وتلاها دخول ابن سعود للحرم، ثم تتويجه ليكون ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها. رحم الله الأمير أحمد الثنيان، الذي لقبه بعض الأعراب (العرج) لإصابته في رجله، أثناء إحدى معارك النضال لتوحيد البلاد.

ثاني ذرية الأمير عبدالله بن عبدالله الذي سنتحدث عنه، هو ابنه سليمان الذي التقيت ولده عبدالعزيز مرات عديدة، لما كان يتولى رئاسة بلدية الرياض، ووجدته شخصية إدارية فعالة، على قدر كبير من المعرفة والحزم وحسن التوجيه، وسأبين المزيد عنه لاحقاً. أما الابن الثالث من تلك الذرية العديدة المباركة، فهو محمد سعود وهو اسم ثنائي لشخص واحد حسب العادة في بلاد الأناضول، وسمعت الكثير في مجلس أبي يلتبس عليهم الأمر، فيظنون ان سعود من أولاد محمد، أو ان هناك خطأ فلا يوجد سعود بل محمد فقط، والبعض الآخر ينفي وجود محمد ويعتد فقط بسعود الثنيان، كأحد الأبناء الكثر للباشا عبدالله. الذي كان والذي يعتقد أنه لم يسكن بلاد العرب، ودولة أجداده وعشيرته. وسبب كثرة الحديث عنه ليس بسبب شخصه أو أبنائه، بل سببه ابنته العظيمة التي أحدثت آثار جلية في الديار السعودية طيلة القرن العشرين. كان والدها محمد سعود على درجة عالية من الذكاء والنشاط، وقد درس الطب الحديث في فرنسا، أثناء أعمال تطوير الدولة العثمانية، على يد السلطان عبد الحميد الثاني الشهير، الذي له ما له وعليه ما عليه، وقد حارب أبي عساكره في الشنانية كما سيرد لاحقاً. أما محمد سعود فبعد تخرجه من مدرسة الطب، التحق بالخدمة في الجيش العثماني، يعالج الجنود من جراح ميدان القتال، وبعد خلع السلطان وتدهور أحوال الخلافة العثمانية، هجم اليونانيون والبلغار على غرب الأناضول، متجهين لاحتلال جزر السواحل، ثم تدمير مساجد إسطنبول واعدتها كعاصمة للكنايس الأرثوذكسية. فثارت في نفسه حمية الدفاع عن ثغور الإسلام، من ان تعلق عليها الرؤية الزرقاء للصليب، فترك مقعد المداواة وامتشق السلاح وحارب الصليبيين حتى استشهد. كان محمد هذا (أو سعود!) متزوج من امرأة تركية شركسية من أهل العفاف والتستر، ورزق منها بنت اسمها مركب أيضاً (عفت منيرة) كانت دون العاشرة لما توفي والدها، ولها أخ يصغرها بعدة سنين اسمه زكي الثنيان. ثم تزوجت الأرملة برجل من جماعتها يقال له إبراهيم أدهم، لم يمتد أجله ولما مات قامت الأميرة عفت الثنيان، برعاية شقيقها الأصغر وأخاها من أمها كمال. لا بد انكم أيها الأحبة تعلمون انه في تلك الحقبة، كان شعب الأناضول يعاني بشدة من هجمة شرسة من الأوروبيين، وبعد نضال قوي من كمال باشا لصد العدوان، تبين له قدرته على صد اليونان والبلغار، لكنه لن يتمكن من صد الإنكليز والفرنسيين البروتستانت والكاثوليك. لذا فقد رأى وجوب احداث شرخ في العلاقة بين النصارى، فقرر تحويل بعض المساجد إلى متاحف، وبديل حروف اللغة إلى اللاتينية، احتساباً منه بعودة الأمور لحالتها خلال السنين القادمة، فذلك أقل ضرراً من تحويل المساجد لكنايس، أو تهجير الشعب خارج الأناضول. ثم قام بإلغاء الخلافة العثمانية، التي كانت مجيدة

في أول قرنين، لكنها غدت دميمة في القرن الأخير، حيث لم نرى منذ زمن محمود خان، سوى تدمير بلادنا ونهب خيراتها وتعليق قادتنا على المشانق، والتهجير القسري (سفربرلك) ويسمع أسلافنا سباب "عرب خيانات" في كل لحظة. لذا فما قام به كمال باشا من حسنات قليلة، قد يغطي جزء من مساوئه الكثيرة، أما الأتراك فيرون خلاف ذلك، فقد أنقذ أرضهم ومساجدهم من الصليبيين، فسموه "مصطفى أتاتورك" أي أب الترك وحارسهم! والحامي هو وحده سبحانه، فقام الكثير بتسمية أولادهم كمال. عاشت تلك الأسرة السعودية مستورة في حال متوسط بتركيا، وبعد وفاة عائلهم عملت الأرملة "الخاتون آسيا" مع ابنتها لتدبير الحال، حيث تقوم بحياكة الملابس وعفت تُدرّس البنات وهي دون الخامسة عشر. قبل ذاك كان بعض من أهل الحجاز ونجد والأحساء، يترددون على عاصمة الإسلام إسطنبول، والأخبار منهم يعرفون وجود عائلات سعودية منقطعة هناك. من أولئك سمعت في مجلس والدي عن اثنان لهما دور وثيق، أحدهما هو عبد الوهاب ابن أحمد نائب الحرم، والثاني تاجر من اليمن يجلب سلع للتجارة ويتردد على مكة المكرمة، يقال له؟؟؟؟؟ اليماني. والأول يعرفه والدي جيداً، فقد كان شخصية مكية محبوبة، وتولى رئاسة بلدية مكة بعد القطان وقبل والدي بثلاثين سنة. كان أبوه يتولى الإشراف على أمور الحرم المكي، مثل الإنارة والنظافة والصيانة كمندوب للخليفة العثماني، أما الكعبة المشرفة فهي في عهدة بني شيبه منذ الجاهلية. كما ان نائب الحرم يتولى توزيع "الصرر السلطانية" على وجهاء مكة، وهو منصب ذو لقب كبير إلا ان عائده قليل، بخاصة لمن يتسم بالأمانة مثل الشيخ عبد الوهاب. ولما زالت دولة آل عثمان قبل شهور من دخول الملك عبدالعزيز للحجاز، عمل السيد عبد الوهاب في عدة وظائف حكومية لفترات متقطعة. أما التاجر اليماني (أبو زكي) فلم يعرفه والدي، لكن بعض الجالسين معه ذكروا تقلب أحواله، حيث ينفق من ربح مبيعاته غير المنتظمة، ولم تكن لديه أملاك كثيرة، والتجارة مربحة أحياناً لكن فيها أشواك وورود. لما ورد لأرملة الثنيان نبأ وصول الأمير فيصل ولد ابن سعود، الذي رافقه شقيق زوجها الأول لرحلة لندن (أحمد الثنيان الذي توفي قبل ذلك ببضع سنوات في الأحساء) سيتواجد في إسطنبول، أثناء رحلته لبلاد السوفييت (روسيا حالياً) توجهت للسلام عليه. وقد تعرف عليهم فوراً ورحب بابنة وولد قريبه، لصلة الرحم بغض النظر عما حدث مع عمهم أحمد؟ وبأريحية الفيصل المعهودة عرض مساعدتهم ببعض المال، لكن الخاتون أفادت أنهم في حال طيب إلا ان بيتهم مستأجر، وعلمت من زوجها الطبيب ان والده لديه منزل في عربستان السعودية! وهي تريد نصيبهم منه لشراء مسكن في إسطنبول. كان ثلاثتهم لا يعرفون العربية ويترجم لهم أحد القرابة، فأعطاه النقود وأمره بتدبير سفر اربعتهم للحج، ولبحث تفاصيل الأمر مع بعض حاشية الملك ذوي المعرفة. سمعت الكثير من السجال والأقوال المختلفة، حول ذلك الأمر في مجلس والدي رحمه الله في خمسينات القرن العشرين، مما لا يلائم أكثره للسرد هنا، لكن الحاصل هو ان عفت الثنيان كان لها دور كبير في البلاد، فغدت والدة محمد وسعود أبناء ولي العهد فيصل. لقد واجهت صعوبة عند وصولها لتعلم اللغة العربية، وكانت لا توجد أي

مدارس لتعليم البنات آنذاك، ولتجاوز الرفض من بعض الناس افتتحت دار لرعاية اليتيمات، وألحقت بها غرفة لتدريسهن قراءة كتاب الله. لقد توسع المكان في جدة ليصبح مدرسة دار الحنان، وانخرطت فيها كثير من فتيات العقلاء الحريصين على التنشئة الإسلامية لبناتهم، بدلا من ارسالهن لبيروت والقاهرة. كانت والدتي رعاها الله وشقيقتي يعانين من عدم القدرة على القراءة، وتعلم أصول الدين والحياة المنزلية المرتبة والنظيفة، ونضطر للاستعانة بمدارس خفية غير جيدة، أو الدراسة في المنزل على يد خادمت غير عارفات. وفي مطلع الستينات أقنع الملك سعود المفتي، ان يترأس إدارة تعليم البنات، فانتشرت المدارس للجميع بفضل الله. واليوم في عهد الملك سلمان حفظه الله، حصلت المرأة على رخصة قيادة سيارتها، أسوة بالصحابيات اللاتي كن يسفن حميرهن، والخيول والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون، والسيارة مما لا يعلمه جهلة المتكسبين الدراهم بالدين. فقد نشروا في المساجد والصحف ان من تقود مركبتها عاهرة، ومن منهم يجرؤ على نفي ذلك وهو موثق، وهم نسل من زعموا ان من يركب السيارة أو يستعمل الهاتف كافر، فعليهم من خالقنا ما يستحقون لقاء عملهم وقولهم الباطل. استمرت عفت الثنيان في العمل الدؤوب، لتحسين أحوال المرأة السعودية، ضمن إطار الشريعة الإسلامية الفاضلة، فتأسست جمعية النهضة النسائية في الرياض، وأكملت مسيرة تربية بقية أولادها وبناتها على الخلق الفاضل. ويشهد كل منصف بدور محمد في تحلية المياه، وسعود في الخارجية وعبدالرحمن في سلاح المدرعات، وبندر في الطيران وتركبي في الاستخبارات. وكبرى بناتها سارة مؤسسة مدارس التربية الإسلامية، بقيادة المريية القديرة بهيجة الفرهود رحمها الله، وبقية البنات الكريمات والقذوة الحسنة للجميع.

هنا يجب ان لا أنسى بقية ذرية الفيصل، لكن الحديث في هذه السطور هو عن الثنيان ونسله، ومثال على البعض أذكر أكبر أبناء الفيصل (عبدالله) الذي يصغره بنحو خمس عشرة سنة فقط، ووالدته يرحمه الله سديرية (أخت زوجة جده) صاحب الوزارتين، والشاعر المجدد والتاجر النابه والصناعي الناجح، حيث تابعت بعض مشاريعه في مركز التنمية الصناعية (امياتنتيت وألبان الصافي) وهو اداري حازم. وابن آخر للفيصل (والدته من آل ابوذعار ذرية الأمير عبدالله بن تركي الأخ الثاني للإمام فيصل) هو خالد ذو الهمة، سواء في رعاية الشباب وإمارة ابها والتعليم ثم مكة المكرمة، وهو أيضا شاعر مرهف أنيق النظم، ومفكر يستشرف الأحوال المتوقعة ويخطط لها. عند دفن والده الشهيد في تلك الحادثة الكريهة، جادت قريحته بأبيات زجلية أدمعت أعين المحبين، منها قوله: ----

لا هنت يا رأس الرجاجيل لا هنت ***** لا هان رأس في ثرى العود مدفون

تلقت رؤوس المخاليق وين أنت ***** وبين العظيم وعود الشوف مطعون

كم خافق وقف عقب ما تكفنت ***** وكم ناظر ذرف دموعه محزون

منزلك يا عز الشرف لو تمكنت **** فوق النجوم اللي تعالت على الكون
والله ما أحطك بالقبر لكن آمنت **** باللي جعل دفن المسلمين مسنون
وبقية أبناء وبنات واسباط الفيصل، أعظم من ان تعد فضائلهم.

لبيان المزيد من العبر أود ان أسرد للأحبة، بعض الأمور عن تلك الأسرة النبيلة، أما
العبرة العظمى فلكم تعرفونها، وهي في رب الأسرة الملك فيصل جمعنا الله به في
جناته، وتعلمون جيداً تفاصيل مسيرته، منذ ولد أثناء نضال والده ضد الترك في
البكيرية، حتى استشهد وهو واقف في مكتبه يدير شؤون الدولة، فأصابته رصاصات
الغل والضغينة الشريرة. من تلك الأمور ما لاحظته عفت (منيرة) الثنيان، من عدم
وجود مبنى لائق في جدة، على غرار ما في الدول المتقدمة، من عمائر مرتفعة تصلح
مكاتب راقية، وأسفلها أسواق مرتبة ومكيفة. كانت معظم البنايات فيها تقل عن عشرة
أدوار، والسوق الرئيس عبارة عن حوانيت تنتشر في الأزقة الترابية، بل المدينة كلها
تدير ظهرها للبحر الأسن، المليء بمخلفات الزوارق المتهالكة، ولا يوجد كورنيش
للتنزه حوله. لذا قررت تشييد عمارة شاهقة الارتفاع، مبنية على الطراز الحديث
بواجهات زجاجية ورخام، تقع في قلب البلدة بين شارع الملك عبدالعزيز وسوق قابل،
واقترضت من البنك لتمويل المشروع. أذكر في مطلع السبعينات ان أحد المعارف جاء
لوالدي في مكة متعجباً من هول ما رآه في جدة، حيث شاهد مثل الصقر الضخم يشق
عنان السماء، ويدور حاملاً مواد البناء للأعلى. لقد كانت تلك أول مرة يشاهد فيها
البسطاء، الكريئات ترفع الخرسانة ومواد الانشاء لعلو مائة متر، بدلا من الأيدي العاملة
التي تصعد السقالات الخشبية في عمل شاق. كان ذلك واحد من إنجازاتها الملموسة،
وأطلق عليها البعض اسم ملكة العمائر، وهم لا يعرفون من يديرها، بينما اسمها
الرسمي المركز الإداري والتجاري، وآخرون يعرفون سموها عمارة الملكة! لما
حضرت الأميرة عفت مناسبة تخرج بعض الطالبات، تمالح أحد الصحفيين من ذوي
"المجاغة الجداوية" فكتب، ان الحفل شرفته صاحبة الجلالة الملكة عفت، مما أثار
حنق البعض كما غضب الملك فيصل أيضا، وهي رحمها الله لم تأمر بذلك ولم يسرها
بل ساءها. ومادام أنا تركنا لوهلة ذرية الثنيان، فسأعرج أيها الأحبة على الأخ الأصغر
لعفت، وهو كمال أدهم أخوها من والدتها وأبوه تركي أناضولي، حيث لا يسع أحد فهم
أحوال بلادنا خلال العشرين سنة، من منتصف الخمسينات حتى السبعينات (شمسية)
بدون التطرق إليه. لقد حرصت عفت على تعليم أخاها الأصغر، فذهب للدراسة في
الجامعة الأمريكية بمصر، ثم عاد إلى جدة بعد ان غدا صهره (الفيصل) ولي عهد
البلاد. لقد ظهرت على الأستاذ كمال ملامح النبوغ والأدب والهمة، وأنداك كان الملك
سعود يضع لبنات تطوير مدينة الرياض، وكلف العديد من المقاولين لتشييد مقار
ضخمة وفخمة للوزارات، وأحياء سكنية عديدة للموظفين، وطرق واسعة مضاءة
ومشجرة. وعمل فيها عدد من المنشآت مثل ابن لادن، وعثمان المصري والبحر
الأحمر وعرين وغيرهم، وكان العمل يتم على طريقة الثقة، حيث لا مخططات تفصيلية

بل عامة، ولا استشاري يراجع ضبط الجودة والمطابقة، أما الدفع فعلى أساس التكلفة + الربح؟ وكان كمال أدهم ممن لهم مشاركة ملموسة في ذلك، حقق منها ثروة مالية وهو دون الأربعين، وتفصيلها ليس فيها الكثير من العبر، لهذا سنعرض عنها ولا أرى من اللائق الخوض فيها. لكن يلاحظ أنك لو سألت عنه في غرب البلاد، لوصفه بالملاك الذي ينفق على الفقراء أو ذوي الحاجات الطارئة، وفي وسط البلاد يروونه عكس هذا كلياً، أما في شرقها فستجد التجاهل التام، والبعض قد يقولون انه يعمل بتوجيه ولاية الأمر. بغض النظر عن الأقاويل أحدثكم يا أحبتي عن أمرين، أولهما ما مسني شخصياً على مدى ثلاثين سنة، وثانيهما ما تداخل مع السياسة العليا للدولة، أثناء علاقته الوثيقة بالملك فيصل.

الأمر الأول هو تأسيس مركز التنمية الصناعية، فلما تنازل الملك سعود في غرة رمضان 1384 هـ عن الحكم، بعد خلافات لبضع سنين تداخلت فيها آراء الإخوة والأبناء، فقد قررت الأسرة السعودية اسناد الأمر لولي العهد فيصل. الذي أصدر بيان موجز عن خطته لتطوير البلاد، تشمل عدة مناحي اجتماعية واقتصادية، من بينها تطوير القطاع الزراعي بإنشاء بنك زراعي، وإقامة مشاريع للري والصرف وتوطين البادية. أما القطاع الصناعي فقد ورد في البيان إقامة مشاريع للحديد والصلب والبتروكيماويات، وتأسيس بنك صناعي يمول المنشآت المتوسطة والصغيرة. وتم فور ذلك المباشرة في الجانب الزراعي الأسهل، أما البرامج الصناعية فقد رأى الفيصل التريث فيها بضعة أشهر، لحين دراسة الأمر بشكل مستفيض. كان ضمن فريق مستشاري الملك بعض كبار إخوته، ونفر من المحيطين به ممن نشأوا في كنفه، ويثق في بعد نظرهم وثاقب فكرهم، واجمع الكل بالإسراع في الوعد الزراعي. لكن بعد أشهر تبينت صعوبات جمة، فرغم توقع ان الكثير لن يوافقوا على الاقتراض من بنك! إلا ان الطلبات انهالت عليه بكثرة، ومع ان القروض يسيرة (أكثرها دون العشرة آلاف ريال) تسدد على أقساط شهرية، إلا ان الفلاحين البسطاء تخلفوا عن السداد. أما مشروع خفض الملوحة في الأحساء، فكانت تكلفته باهظة والفوائد محدودة، وشبه ذلك في مشروع التوطين في حرض المجاورة. في السنة التالية بينما الفيصل يمضي إجازة في جنيف، تداول مع مستشاريه وعد تطوير الصناعة، حيث رغم شعوره بعدم الارتياح لأساليب عمال المصانع، خاصة في التعبير عن مرئياتهم بفظاظة، إلا انه لا يريد إخلاف وعده بتنمية القطاع. كان أكثر المشاورين يقترحون تأجيل ذلك لعدة سنوات، بخاصة ان تنمية الزراعة تعثرت رغم الكلفة الباهظة، كما ان الحرب في اليمن مستعرة، والنظام الناصري في مصر لم يكتف باحتلال أجزاء من اليمن، بل باشر في قصف أراضي المملكة، وميزانية الدفاع السعودية بحاجة للدعم. لكن كمال أدهم جاء باقتراح عملي، فعلى مقربة من فندق كونتيننتال، يوجد المقر الأوروبي لمنظمة الأمم المتحدة، التي لديها "مشروع التنمية دي بي" وأوصى ان تتصل السفارة في برن بهم، وان يلتقي الملك مع مديرهم لمناقشة ذلك. وقد رحب الرجل بلقاء الفيصل بخاصة أنه

من الموقعين على ميثاق الأمم المتحدة، في سان فرانسيسكو قبل عشرين سنة، و عرض استدعاء مدير منظمة اليونيدو (تنمية الصناعة) للمشاركة. وعلى عشاء مبسط شرح أدهم ما ورد في البيان الملكي، الذي أثار دهشة المدعوين لعدم استناده على أي دراسة جدوى، مع اشارتهم لارتفاع تكاليف مصانع البتروكيماويات والصلب والبنك الصناعي بالنسبة للمملكة، واقتروا الاستعانة بمركز للتنمية الصناعية، تقوم اليونيدو بالمساهمة فيه مع برنامج (يو إن دي بي) والجامعة العربية (ايدكاس) المعادي، لكن أدهم يعرف حساسية العلاقة مع الجمهورية العربية المتحدة آنذاك، وتمكن من توجيه الفكر نحو تأسيس مركز للتنمية الصناعية في الرياض، لا يكون عبء مالي باهظ على البلاد. وتم ذلك بالفعل وافتتح بشكل مبسط بعد سنة، وبنفقات سنوية تبلغ مليون دولار تتحمل اليونيدو نصفها، ترأسه الرجل العالم الفاضل معالي المهندس محمود طيبة. فتمكن من تطويره خلال الأربع سنوات التالية، فمن بعض غرف في وزارة التجارة، تعاون وزيرها آنذاك (عابد شيخ) فوفر ملحق ملاصق، من ثلاثة طوابق أقيم خصيصاً للمركز، على طراز حديث وعملي بدون بهرجة. في نهاية الستينات كنت ما أزال أدرس في الجامعة، لكنني أخذت ارتاد المركز في بداياته، حيث كان بعض مدرسينا منه ومعهد الإدارة، وأراجع مكتبتيهما مع الخبراء فيهما عند اعداد البحوث، ولا اكتفي بمصادر البيانات في مكتبة الجامعة. كان من المدرسين عبدالعزيز الزامل ومحسون جلال وجميل الجشي، وغيرهم من السعوديين والأجانب، والأول تسلم حقيبة وزير الصناعة بعد خمس عشرة سنة، والثاني غدا رئيس صندوق التنمية الدولية، والثالث عضو مجلس الشورى، ولهم علي فضل لا ينسى رغم ولعي بالجدال!

عندما تخرجت في مطلع السبعينات (بمرتبة الشرف) هنأني الزملاء لأنني سأحصل على احدى وظيفتي مساعد المدرس لتفوقي. بعد أيام فوجئت ان احدى الوظائف ألغيت لعجز الميزانية (برميل البترول بدولار واحد) والأخرى اختاروا لها زميل أقل مني تقدير، ولما راجعت رئيس القسم (سبيعي ثوري) تعذر مني بلطف جم، ولما أصريت على معرفة السبب قال إن حرفة التدريس لا تلائمني. لما خرجت من عنده غاضباً التقاني وضاح الفلسطيني، الذي يعيش كثرة الكلام والتوضيح، وادعى ان السبيعي لديه عمل مسائي، في جهة حكومية يرأسها قريب من وقع عليه الاختيار، فاستشطت غيظاً وتوجهت لمكتب العميد. دخلت على الدكتور غازي القصيبي أجم حنقي مما جرى، وابدى لي أنه غير راض ولكنه لا يتدخل في صلاحية رئيس القسم، والعمل في التدريس درب مسدود والأفضل لي العمل في مجالات إبداعية تلائم مواهبي الجيدة. فانزلت من لساني عبارة ليست بذينة لكنها غير طيبة، فرد علي ان ثقته في اهتزت، فزدت الطين بلة وقلت لقد كانت ثقته في عظيمة، لما كان يفيد الطلاب ان الإجابة النموذجية في ورقة الختلان، فبماذا أفادتني تلك الثقة أو مرتبة الشرف؟ وهممت بالخروج لكنه رحمه الله دعاني لسماع كلامه الرقيق، وقال لماذا تريد ان تكون مدرس؟ والأبواب العالية أمامك مشرعة، فزاد الكدر في خاطري وأعلم أني مغادر تلك الكلية للأبد،

فأجبت بصوت هادئ سمعه بعض من في الغرفة، ولا يعبر عن مناقبي الأصيلة لكنه متأثر بالعرق الحريقي، وقلت {أريد ان أجلس مثلك على هذا الكرسي الدوار، وعلى بابي حاجب جاهل أعور} وهرولت مغادراً ظاناً أنني "فشيت خلقي" ولن أخسر شيئاً. قال لي مسجل الكلية (من أهل شقراء) وأميرها العم زيد، ان الكلية العسكرية أرسلت مندوب لمعرفة درجات الطلبة المتفوقين ليعينوهم مساعدي مدرسين، وأعطاني بطاقة عنوانه ونسخة من أوراق ملفي. لما راجعته في طريق المطار القديم، رحب بي بحرارة وأخذني لوكيل القائد، الذي اطلع على بياناتي وأجاب عن استفساراتي بشأن البعثة، أعجبنى برنامج عمل الكلية، وان البعثة وأمريكا بعد سنة واحدة وليس سنتين مثل الجامعة. دعاني لمشاركة الطعام معهم، واستأت من المعاملة الصارمة بين رتبهم، ثم أفادني ان علي حث الكلية لإرسال ملفي لديوان الخدمة المدنية، وفور وصوله أتقدم لملء أوراق التعيين، حتى يطلبوا نقلي للخدمة العسكرية. آنذاك كانت الدولة تلزم الخريجين بالعمل فيها، بما يعادل سنوات الدراسة أو إعادة الراتب الشهري المدفوع للطالب، والبالغ 318 ريال شهرياً لكنه يكفي للنفقات فسبحان مغير الحال. لما أخبرت العم رشيد رحمه الله عن ذلك، أبدى معارضة شديدة للعمل العسكري، وقد كان معجب بما شاهده في الجريدة اليومية عن تخرجي بمرتبة الشرف، ويقارن ذلك بأحد الجالسين الذي بعد سنوات عاد بدون نتيجة، مما جر علي ضيق شديد لوقت طويل! اوصاني أحدهم ان أتقدم لجامعة جدة الأهلية، حيث لوالدي علاقة مع بعض من فيها، لكني كنت أعرف من الزملاء عن ضعف امكانياتهم، وتقضياتهم الجهوية المقيتة بخاصة ان محل ميلادي المسجل في التابعة هو نجد، لأسباب لا علاقة لنا بها، في ظل الغاء الإمام عبد العزيز للقب ملك الحجاز وسلطان نجد، مما أتمنى ان أتمكن من بيانه في جزء لاحق. في تلك الفترة كانت تشغلي عدة أمور أخرى، ولما طلبت أوراق رسمية لها، اشترطوا تصديق إحدى الأوراق من مكان الدراسة أو العمل، ولم أكن في أي منها وباءت محاولة الانتفاف بالفشل. ولم أجد بد من العودة لمسجل الكلية ليصدق عليها، لكنه أخبرني أن ملفي أرسل للديوان، ولم تعد لي أي علاقة بهم لكنه تعاون وصادق عليها، لكن المشكلة في الختم الأزرق الذي يوجد لدى العميد. كان من المستحيل علي العودة له بعد تلك الكلمات السيئة، وجاء الفرج من زميل المسجل الذي سيتوجه للعميد لختم أوراق أخرى، فطلبت منه ان يضع ورقتي مع تلك الرزمة، وعسى ان لا يفتن للاسم، لكنه معالي الدكتور غازي القصيبي، فعاد الرجل وقد وضع الختم على كافة الأوراق ما عدا خاصتي، وقال ان علي الذهاب له للإجابة عن استفساره، وحرصاً على عدم التعرض للإساءة رفضت. لكنني عند الباب تذكرت ان سيارتي في الورشة، والكلية في منطقة نائية على ضفة وادي حنيفة، ولا توجد سيارة أجرة في عيشة، وعلي المشي إلى الشميسي في حر تموز اللاهب. لذا ازدرت عزة نفسي وقررت الدخول إليه، فالتوبيخ من المعلم الفاضل أهون الشرين، بخاصة أنني قد أخطأت التعبير وأتحمل جزاء ذلك. لما دخلت عليه كان يجلس على مقعد الضيوف، ووجهه متجه وأمرني بالجلوس جواره، ثم قال ان فاقد الشيء لا يعطيه، وملفي أرسل للديوان وليس بمقدوره

انهاء ما أريد، وبعد بحث قال ان الورقة من محل الدراسة تسهل الأمر. لكنه قال ان كلامي عن الفراش والكرسي فيه إساءة لنفسي، ثم أضاف ان ذلك ليس من طموحاته، فقبل عشر سنوات اقترحوا على الملك سعود ان يعينه وزير للبترول، بعد ان عمل الطريقي ما عمل وقال ما قال، وقبل سنوات شارك مع الأمير فهد في مفاوضات اليمن، وعرضوا عليه ان يكون معاون وزير الداخلية. اعترض على عملي في القطاع العسكري، وأفاد انه تحدث مع نائب مدير مركز التنمية الصناعية، ولديهم نظام ابتعاث جيد بكامل الراتب، وعلي ان اذهب لمقابلتهم اذا اردت انهاء ورقتي، وسيرسل معي السائق ليعيدني لاستلام ورقتي، وأجبتة أني أعرف المركز جيداً وبخاصة المهندس طيبة، أما الأستاذ ناصر الصالح فلم أراه سوى مرة واحدة، جاء يتعجل افساحنا المجال لدخول زواره من اليابان، حيث لا يوجد مصلى ويضطر البعض لأداء فريضة الظهر قرب مدخل صالة الاجتماعات، حيث كان يؤمهم المدير العام. كما لم استرح لوجود جدال بين رئيس المجلس (الوزير) وبعض الأعضاء بخاصة الوكيل، فرد علي ان الوزير توفي قبل فترة، وعمر فقيه سينتقل لجهة أخرى قريباً. لما رأيت إصراره توجهت للمركز حيث لقيت حفاوة جمة من النائب، وبدا لي ان العميد حادثه قبل وصولي، فقد وجدت خطاب معد للديوان لتسليمي ملفي حيث تم تعييني لديهم، وعاد بي السائق وأنا اشعر بكدر للتسرع في الأمر. كان راتب الجامعي المتخرج حديثاً يقل عن ألف ريال شهرياً، ولما تشاورت مع بعض المعارف أوصوا بقبول ذلك، حيث كان المركز ومعهد الإدارة من الجهات المرموقة. ولفت البعض نظري ان المدرسين لا مستقبل لهم، ولا يكتسبون خبرة للنجاح العملي، ومنذ القدم (الجاحظ) والعرب يستنكرون طباع معلم الصبيان، وقضاة يرفضون شهادتهم وأناس لا يزوجونهم بناتهم، وقد بينت ان أستاذ الجامعة ليس كذلك، وسردت مقولة أمير الشعراء شوقي: -

قم للمعلم وفه التبجيل **** كاد المعلم أن يكون رسولا

أعلمت أشرف أو أجل من الذي **** بيني وبينشئ أنفساً وعقولا

لكن آخرون أصروا ان مدرس ثالث متوسط لا يختلف عن مدرس أولى ثانوي، ومدرس ثالثة ثانوي لا يفرق عن مدرس أولى جامعة، فكلهم في نظر العامة مثل مربى الحمام أو ناقر الدف! كان الأخ الأكبر سعود بن علي يرفض تلك المقولات، لكنه لا يؤيد العمل كمدرس، وقد عمل سنوات طوال في التعليم ثم مدير مدرسة الحريق، لكنه لم يعرف السكن إلا لما انتقل لعمل اداري في وزارة المعارف آنذاك.

بقيت في "حيص بيص" فوظيفة مساعد أستاذ (معيد) في الجامعة طارت بسبب المجاملة، والغالبية نصحوا بالبعد عن العسكرية، ولم أحبذ العمل في مركز التنمية الصناعية حيث أرسل الديوان ملفي. كانت تشغلني أمور عديدة غير الوظيفة، من أهمها استكمال استثمار يوفر عوائد ملائمة، تسد النقص من الراتب الحكومي. إضافة لتدبير أرض لمنزل لائق والزواج، حيث تلقيت عدة عروض من القرابة والمعارف! لكن

الشغل الفكري الأول هو نهل العلم من المنبع الأوفر، وهو جامعات تلك الدولة التي كانت آنذاك ترسل أبنائها للسير على سطح القمر، وبنت أكبر طائرة ركاب ذات طابقين (جمبو جيت) وأعلى عمارة وأضخم سد في العالم، وأقوى قنابل فتاكة (هيروشيما وناقازاكي) حيث أتمنى ان أستفيد من معارفها، وأوضح لمواطنيها ميزة الخلق الإسلامي الرفيع. لاحظت ان الرياض رغم نقص الموارد، ودعم مجهود الحرب بعد هزيمة 67م تتوسع باتجاه الشمال الشرقي، ومتر الأرض شمال سجن شارع الأحساء (شرق البيسي) زاد من ريال واحد إلى خمس ريالات في فترة قصيرة. مما يعني فرصة استثمارية مجدية، لكن مجرد وضع بضعة آلاف من الريالات في أرض، وتركها لثلاث سنوات ليس كاف لتحقيق عائد مجدي، بل يلزم التوجه لاستخدام "العتلة الاستثمارية" المعروفة بمصطلح (ليفريج) وعدم الدخول في المساهمات العقارية، التي تفيد مدراءها ولا ينال المشاركون سوى الفئات. قررت العودة لمركز التنمية لسحب أوراق، حيث علمت ان من لا يباشر العمل خلال شهر من تعيينه يلغى قراره، والتقيت في شئون الموظفين رجل تعين قبل أيام (الأستاذ بداح السبيعي) وهو رجل عصامي، يعرفني ولا أعرفه وأخذني جانباً يحثني لعدم سحب ملفي. كان يدرس منتسباً في الكلية وله معرفة مع بعض الختالين، بل والتقى بوالدي في أمانة العاصمة، مع بعض قرابته قبل خمس عشرة سنة، ولم ينسى نصيحته لهم ان يركزوا على تعليمه، بدل من توظيفه حيث لاحظ قدراته الجيدة. قال لي أنه أكمل دراسته المتوسطة ثم الثانوية، والتحق بالجامعة لكن وظيفته الحالية (البرقيات) لم تعد ملائمة لوضعه، وهو متزوج ولديه أطفال وقد التحق بالمركز الذي يلبي طموحاته، وأصر على ان استمر معهم حيث سمع اطراء لي، حتى أنهم لم يعيدوا ملفي للديوان رغم عدم المباشرة. كما أكد انهم حريصون على وجودي معهم، ويفكرون لتدبير مسابقة لترفيعي للسابعة بعد شهور من مباشرتي، والبعثة ستكون براتب كامل، مع بدلات مادية شهرية إضافية. ولما حدثته عن الكلية العسكرية نصح بشدة بالإعراض عنها، حيث الخدمة العسكرية قاسية على امكانياتي الضعيفة، وإن التدريس عمل شاق فيه تضحية جمة وعائد قليل. أكد لي أنه وبعض رفاقه المنتسبين للجامعة عن بُعد، يحضرون للدراسة المسائية في مدرسة الجزائر (عطايف السويلم) وأنهم يطمحون للأفضل ويودون ان أتولى تدريسهم، حيث يعرفون تفوقني والتجربة خير برهان.

باشرت العمل في إدارة البحوث الصناعية، وعملت بهمة لأكون على قدر حسن ظنهم في، وكان المركز آنذاك قد بنى ثلاث مناطق صناعية (الرياض +جدة +الدمام) ساهمت اليونيدو بتجهيز ورش الصيانة فيها، بأجهزة ومعدات ومخارط تساعد في عمليات الإصلاح. لقد أدت تلك المناطق لتطور ملموس في قطاع الصناعة بالرياض، فبعد ان كان عدد المصانع 38 قفز ليتجاوز المائة، ورغم صغر مساحة الأراضي إلا انها كانت توفر مناخ هادئ للعمل، بعيداً عن تدخل البلدية التي اقتصر عملها على متابعة الورش والمنشآت خارج المناطق الصناعية. لم يكن في الرياض سوى مصنعي

الإسمنت والجبس على مستوى كبير، إضافة لمعامل تعبئة المياه الغازية والثلج، وقد زرت مصنع صغير للبلاستيك في الملز (جنوب الجامعة) أقيم في منزل قديم، لكنه ينتج بشكل جيد في الدور الأرضي، ويخزن الخامات والمنتجات في الارتداد، ورفضوا ان أقابل المالك أو حتى معرفة اسمه، حتى نقدم له نصائح ومقترحات تطويرية. لقد أتاح لي المركز الاطلاع على ملفات كافة المصانع، الموجودة في الوزارة بالمبنى الملاصق لنا، وقد عرفت ان المالك زوجة أحد كبار الأكابر الساميين، فعرضت على الخبراء ان نصرف النظر عنه. بعد أسابيع كلفوني العمل مع فريق دراسة جدوى إقامة مصنع لصلصة الطماطم، الذي يزمع أحد كبار موظفي الإمارة امتلاكه بعد التقاعد من العمل، وهو رجل فاضل ذو هممة من منطقة السر، حيث يوجد فائض موسمي من الطماطم، فيباع بسعر بخس أو يترك للتلف. جاء خبير من اليونيدو لعشرة أيام، وأفاد الفريق ان المصنع لن يكون مجدي، مادام سيشتري بالصندوق خلال الموسم، حيث مصانع الصلصة في شرق أوروبا، تستلم الطماطم خلال شهور الموسم (وليس أيام) في شاحنات قلابية، وبتكلفة زهيدة تجعل من المجدي الاستمرار في الإنتاج، لكن من في الفريق سيخبر الناهض بذلك؟ جلست مع الخبير في المساء لبحث البدائل، وتوصلنا إلى تغيير الفكرة لشراء وحدة صغيرة لاستقبال الطماطم الطازج لعمل العصير، بينما يجري استيراد مراكز الطماطم لإنتاج الصلصة، ومركزات الفواكه لعمل أنواع من المشروبات، تدعم إيرادات المنشأة وتحسن إمكانية استمرارها مالياً، وعلى ان يجري الاعتماد على الخامات المحلية مستقبلاً وبالتدريج، وعلى الهيئة التي تضمن تحسن جدوى المشروع. كان فريق الأمم المتحدة مكلف بعمل تقرير سنوي، عن الأحوال والتركيبية التقنية والاقتصادية في البلد المضيف، مما يستدعي عمل مسح سنوي للمصانع في المملكة، وقد شاركت في ذلك حيث لاحظت صعوبة الحصول على بيانات محاسبية أو فنية، لتخوف العاملين من غضب المالك عليهم، حيث كل أمورهم لا بد ان تكون في الخفاء! وبدا ذلك واضحاً من تخوف أحدهم عند سؤاله عن البيانات الأولية للمصنع، مثل اسمه ورقم وتاريخ الترخيص، أو عند الوصول لطلب ارقام الربح والخسارة، أو المشاكل التي تجابههم. لذا توجهت فور عودتنا للمركز لرئيسي باقتراح الغاء بعض الأسئلة من الاستبيان، حيث الاسم والعنوان واضح أمامنا، والترخيص أصدرته وزارتنا وصغار الموظفين في المصنع لا توجد لديهم صورة الترخيص، لكنها لدينا فلماذا نسأل عنها وهي لدينا. أما السؤال عن الربح فهذا من المحرمات عندهم، ويمكننا حسابه فيما لو عرفنا الإيرادات والنفقات، ويلزم تلافي إثارة الريبة لدى المالك أو موظفيه، كما ان الاستبيان من عدة صفحات والغالبية يتأففون من إنفاق الوقت والجهد في عمل لا فائدة لهم منه. لقد اقنعت ان طلب القيمة المضافة للمنشأة، عمل عويص بالنسبة للبسطاء الذين يديرون المصانع، وهذا هو سبب عدم تجاوب الكثير بتعبئة الاستبيان الطويل، الذي يلزم تبسيطه ليلائم قدرة العاملين، فأوصاني ببحث ذلك مع أحد خبراء اليونيدو. الذي جابهني عند عرض الأمر عليه بحديث عنجهمي، عن ان الاستبيان معتمد من فيينا، ولا يجب التعديل فيه قطعياً، ولا بد من استخدام الحزم والشدة

مع غير المتعاونين، ولو وصل الأمر لإقفال أي مصانع تهمل توفير بياناتها الكاملة! تبين لي لاحقاً ان الرجل من الكتلة الشرفية، لديه أفكار شيوعية عن وجوب سيطرة الدولة على كافة الموارد، وتلك الدول لم يكن مواطنوها يحصلون على تأشيرة دخول السعودية بسهولة، لكن بعض المنظمات الدولية تمنحهم جوازات سفر مؤقتة، تتيح لهم السفر لكثير من الدول في هيئة شبه دبلوماسية، وحيث حذرني كثير من الأحبة من التصرفات التصادمية فقد عرضت عنه. بعد أسابيع وصل خير زائر ذو جسم ضئيل، لكنه ذو فكر عملاق، أبدى استياء شديد من قلة توفر المعلومات لإنجاز تقريره، عن أوضاع الصناعة في المملكة. سمعت البروفسور ميهي نوت يتذمر لعدم اكمال البحث الميداني، الذي سبق ان نوه في العام السابق عن عدم إمكانية قبول معلومات عن أقل من نصف عدد المصانع، والآن لا يتوفر إلا ما يقارب الثلث فقط. وقد نوهت له ان الاستبيان مطول ومعقد، مما يصعب على ادارة المصانع البسيطة تعبئته. طلب ممن لديهم اقتراحات للتطوير تقديمها له مكتوبة خلال يومين. قدمت مسودة استمارة معلومات مبسطة من ثلاث ورقات بدل الثمان، الأولى يقوم الباحث بتعبئتها من واقع ملفات المصانع في المركز والوزارة، ويدقق صحتها أثناء الزيارة، حيث لاحظت ان بعض المصانع يختلف اسمها أو عنوانها في الواقع عن الترخيص. والثانية يقوم مهندس الإنتاج ومدير الحسابات بتعبئة بياناتها المبسطة، مع تلافي الأسئلة المربكة مثل الربح السنوي أو القيمة المضافة، حيث تكفي معلومات المبيعات وبيان الأجر والايجارات، والنفقات الجارية لمعرفة ذلك في مكاتب المركز. أما الورقة الثالثة فتتم تعبئة خاناتها بالمشاركة بين الباحث وإدارة المنشأة، وبأسلوب ودي ليس فيه فرض أو تسلط حيث ان المركز (بل حتى الوزارة) ليست لديها سلطة سيادية، مع تجنب أي إشارة لما قد يوجد من خلل طفيف، لا يؤثر على السلامة، حيث المركز يعتبر خادماً لتنمية الصناعة وليس هيئة ضبط وتوبيخ. أما الاستمارة الطويلة فتترك لهم لتعبئتها على مهل، ومن يقوم بذلك يمنح بطاقة زائر دائم للمركز، يحصل على مزيد من المعلومات والدعم لمصنعه. أدى ذلك لتجاوب أوسع بل واكتساب علاقة طيبة مع المصانع القليلة والناشئة، وظهر تقرير أوضاع القطاع الصناعي بشكل أفضل. بدأت أحوالي في المركز تتحسن، حيث انتدبت مع زملاء أقدم مني، لإكمال مسوحات ميدانية للمصانع في مناطق أخرى، وكنت احرص على المنطقة الغربية، حيث الأهل ولا أحتاج لنفقات إقامة باهظة، كما جرى تكليفي بأعمال خارج الدوام الرسمي، لقاء بدلات مالية عن التنقل وساعات العمل الإضافي.

كنت أشعر بالارتياح في المركز واتفكر دوماً دور كمال أدهم في تأسيسه، ليس بسبب وفرة المدفوعات فقط، بل لما توفر لي من خبرة في معرفة المجالات الاستثمارية الناجحة، وعلاقة جيدة مع ملاك ومدراء معامل ذات علاقة باهتماماتي الشخصية. حيث كنت أضع كل جهدي لمعاونتهم في تجاوز أي عراقيل، وتعريفهم بطرق تجاوز عقبات بعض الإجراءات الروتينية المضطربة. خلال شهور قليلة تقرر بعثي لدراسة

الإنجليزية في معهد الإدارة، مع عدد من زملائي حيث تقرر وضع البعض في المرحلة الأولى، وآخرون في الثانية وزميل معي في الثالثة، ممل يعني تسريع اعدادنا للسفر لأمريكا. وعند وصولي لبسنلانيا في السنة التالية، قررت الجامعة عدم حاجتي للمزيد من دراسة اللغة. وبشرت فوراً في برنامج البعثة أثناء سنة دراسة اللغة، مما كاد يتسبب في اشكال علي من الحاسدين لكن الله بفضل سلم، حيث هم يعتبرون من يوجه فكره وجهده ووقته لطلب العلم متلاعب، أما من أمضى جُل وقته في اللهو فهو "فرفور ذنبه مغفور" يستحق ان تمدد بعثته مدة أطول ليتلافى بعض خيبته. كان المركز يشهد تقلبات عديدة في المناصب العليا بعد عملي فيه بشهور، حيث تسنم ادارته الأستاذ رضا أبار، ووالدي يعرف والده الذي عمل في رئاسة مجلس الوزراء، وقبل ذلك في ديوان النائب بمكة المكرمة، كمل تولى مساعدته المهندس عبد العزيز الزامل، من أمراء عنيزة بني ثور السبعان. ذات يوم انتهت الدراسة مبكراً، وخرجت لأدرك المغرب، ولما انحرفت يمينا لاحظت منزل قديم مجاور، يتجمع خارجه نفر من الرجال، وعلى جداره لوحة صغيرة أنه مكتب عقار. لذا قررت ان احضر مبكراً في الغد لرؤيته، فقد اعتدت ان أرى مكاتب عقار ابن عكيل والغنبر والشثري، وهم قرب منزلنا في شارع سلام، حيث كنت وأكبر إخوتي نسكن في قرنة، قرب دوار قصر الأمير عبدالله عم الملك. كان البعض يحثوننا للانتقال منها شمالاً، لكنني ارتحت للجيران فيها، وبخاصة الشائب (ساكن الحوطة) المقابل لنا المتأذ دوماً من سيارتي، الواقفة في السكة الضيقة حيث يريد وضع علف عنزاته، لكن ما حببني فيه هو ولده مَرشد، الذي يعمل في كتابة العدل، وهي مبني طيني ضئيل قرب الديرة، يمكن ان تتأخر معاملة الصك فيه لعدة شهور، إذا لم يفزع معك أحدهم. لما دخلت المكتب جابهني شخص أردني (فلسطيني) يدخلن بشراهة، وله نظرات وقحة وعبارات بذينة يقال له علاء، وكان الأنسب ان يسمى دناء، جال في خاطري اني سبق ان رأيت. ثم تذكرت أني التقيت به قبل تخرجي، وكان لديهم أراضي في منطقة السلیمانية، غرب بوابة المطار وغير بعيدة عن مشفى الأمراض الصدرية والفندق، لكنها منحرفة عن الجهات الأصلية، وتتبع شبك المطار لكن سعرها متهاود ويقبلون الدفع بالتقسيط. لكن ما يروج لها أنها في ملك زوجة رئيس بلدية الرياض، ويأمل البعض سرعة تزويدها بخدمات الطرق والكهرباء، أما الأراضي التي عند علاء آنذاك فهي شرق المطار على طريق الدمام. أشار علي أحد زملاء المعهد ان انتظر لقاء شخص مقبول، يقال له وهبي سنوس كنت أظنه سنوسي، وعلمت لاحقاً ان المكان له علاقة بتاجر يقال له عبدالمقصود خوجة، من ذوي العلاقة مع كمال أدهم والثنيان، كان والده يعمل في ديوان النيابة بمكة المكرمة. لقد كنت معجباً بتلك الصدف المباركة، فحيثما توجهت وجدت لمحات أدهم وأياديه، بل وحتى لو اقتصر الأمر على أصابعه أو بصماتها فهو كافي. وإذا اتجهت لشراء منزل مضى على بنائه قرابة عشرين سنة، لكنه مازال قوي الهيكل الإنشائي فستعرف ان احدي شركات أدهم بنته. وقد كان الناس يحبذون الطراز الحديث في المنازل، وتباع القديمة بما لا يزيد عن خمسين ألف ريال. كانت المنطقة الواقعة شمال شارع الجامعة (الملز القديم) تتوفر

بها فلل صغيرة لكنها بحاجة للترميم، وأكثر ما يجلب انتباه المشتريين هو أبواب ونوافذ الألمونيوم بدل الخشب العتيق، وبلاط السيراميك وأدوات الإضاءة الحديثة. ومن لديه الهمة والمعرفة والعلاقة، خاصة مع ملاك المصانع من مقاولين وتجار، كان بإمكانه ان يتولى ترميم المنزل خلال شهور قليلة، ثم يبيعه بربح جيد يفوق ما تقدمه المساهمات العقارية، خاصة ان تلك المنطقة قريبة من شارع الوزارات، ويقال آنذاك الملز هو المعز. ذهبت مع شقيقي زيد لشركة كبرى قيل ان ملاكها كويتيون، وبعد قرابة ثلاث سنوات كان العائد على مساهمة العشرة آلاف ريال، نحو ثمانين في المائة لكن أسعار الأراضي زادت في تلك الفترة بأكثر من ألف في المائة، وإذا ناقشت قالوا أنظر لفلان الذي قبض المساهمات، ثم طار غرباً بالمال تاركاً المساهمين صفر اليدين.

في تلك الفترة كنت مشغولاً بعملتي في المركز وباستثماراتي الجانبية، إضافة للدراسة والتدريس والزواج، لكنني شغوف بالمعلومات امضي وقت غير قصير في تحصيلها، حيث اعلم أهمية المعلومات في اتخاذ القرارات، فهي النبراس الذي يضيء درب الكفاح نحو النجاح. قبل خمسين سنة لم يكن في العالم شبكة المعلومات الدولية، كما هو الحال مع الوسائط الالكترونية (ميديا) الحالية، ولا بد من استخراج البيانات من عقول وأفواه ذوي العلاقة. من أهم المصادر التي أحرص عليها خارج نطاق التنمية الصناعية، هي معلومات التطور العقاري في الرياض، وبين لي أحد مدراء المصانع الذي بنيت معه علاقة وتعاون، ان هناك دراسة يقوم بها "مكتب دوكسيادس" بأشر فيها قبل نهاية الستينات، وكان يفترض ان تضع مخطط تطوير المدينة، من ناحية التطور الحضاري وتخطيط المناطق الجديدة في الرياض. وكان المؤمل ان تغطي الفترة من 1970 حتى سنة 2000 م، لكنها تأخرت نتيجة تباين الآراء حول بعض الأمور الحساسة، خاصة منتزه وادي حنيفة الذي تجاوره قصور رسمية مهمة، مثل الناصرية والمعذر وعليشة والفاخرية. التقينا مع أحد العاملين عليها وأفادنا ان الاطلاع على سطر واحد من المسودة مستحيل، حيث هناك إشكالات بين بعض الجهات الحكومية، حول الحزام الأخضر للمدينة، وموقع المطار الجديد وأمكنة المرافق الرسمية، كما ان مكتبهم في أثينا متضجر من استمرار العمل، بعد انتهاء فترة العقد مما يرفع الكلفة عليهم. زادني ذلك شغفاً لأعراف كيف سيكون اتجاه نمو الرياض خلال السنوات القادمة، وماهي المناطق التي ستحظى بفرص التنمية العقارية، حيث هناك تحركات حثيثة لتطوير العاصمة، لتكون على مستوى حديث بدل تلك الأحياء الطينية المترية. ففي عام 69م انتقل الملك سعود لرحمة خالقه، وبعد شهور اشتعلت النيران في أجزاء من المسجد الأقصى، بأيدي يهودية حاقدة، فقرر الفيصل ان يوطد مكانته وجهوده لخدمة الإسلام. فدعا لقمة إسلامية عاجلة لإنقاذ ثالث الحرمين، لكن لا يوجد في العاصمة الرسمية ولا المقدسة (الرياض ومكة) مكان ملائم للقمة، التي عقدت في الرباط لاحقاً. ولما تقرر الإسراع في تصميم ثم انشاء مركز مؤتمرات متكامل، يجاوره فندق عالمي ومرافق مساندة أخرى، جرى اقتراح موقع شرق قصر الملك، على الطريق المؤدي للمطار

لمنع تزامم المرور في المدينة. لكن ذلك المكان يقع خارج نطاق مخطط الرياض حسب تصاميم دو كسيادس، أي لن تصله المرافق العامة مما أحدث بلبلة حتى قبل بدء تنفيذ المخطط. رغم ذلك إلا أن شغفي بالاطلاع عليه بقي متزايداً، ولما عرضت على إدارة المركز طلب نسخة من مسودته، لم يجد ذلك استحسان المدراء لبعده عن مجال العمل. وكان أحد خبراء اليونيدو مؤيد لي، لأن المنطقة الصناعية التابعة للمركز قد اكتظت، وخلال سنتين أو ثلاث قد لا توجد أي شواغر فيها، مما يعيق التنمية الصناعية ويلزم سرعة تدبير موقع ملائم لمنطقة صناعية ثانية. كان برنامج (أو مشروع) الأمم المتحدة الإنمائي قد قدم معدات صناعية، كهبة للمركز لدعم ورش الصيانة، وقررنا الذهاب لهم للمساعدة في الحصول على مخطط الرياض. لقد بذلوا الجهد في ذلك لكن الطلب رفض، حيث الرسومات والجداول لم تعتمد، ولا يريدون نشرها حتى لا تجلب المزيد من الجدل، وعلى كل حال فالأمر في عهدة بلدية الرياض، ويمكن مراجعتهم حيث لديهم نسخ كاملة من وثائق المخطط. لم أفقد الأمل بل زاد حرصي للحصول على معلومات عن توسع الأحياء الجديدة، وبحث عن مكان ملائم لمنطقة صناعية جديدة، قريبة من شريط السكة الحديدية للقطار، الذي تقع عليه المنطقة الصناعية الحالية. عن طريق الوزارة جاءنا موعد مع رئيس بلدية الرياض، وفريق عمل التخطيط لديه، وقررنا عدم الحديث سوى عن مرئياتهم بشأن المنطقة الصناعية الجديدة. احتفى بنا الرجل ذو السمات الراقية، والمظهر الأنيق والكلمات الرزينة، ورحب بموظفي وزارة التجارة (المركز) وخبراء الأمم المتحدة، وعرفنا على معاونيه وأبدى استعداداً للتعاون بشأن موقع المنطقة الصناعية الجديدة. وأشار أن الأراضي على حافتي شريط القطار، تتبع مصلحة السكة الحديد بموجب أمر ملكي قديم وليس لهم علاقة بها، تتابع النقاش مع معاونيه الذين أبدوا معارضة إقامة الصناعية في شمال شرق الرياض، حيث استخدامات الأراضي هناك مخصصة للأغراض السكنية والتجارية والترفيهية، وعلينا التركيز على الجنوب الشرقي. لما ورد في كلام أحدهم ذكر ما تقوم به دو كسيادس من إعداد مخطط حضاري لتطوير العاصمة، تشبثنا به ورغبنا الاطلاع على ذلك، فقالوا أنه رغم مضي أكثر من ثلاث سنوات على البدء فيه، لم يزل في شكل مسودات أولية وهناك تباين في الآراء حوله ولم يعتمد، لكن أحد خبراء الأمم المتحدة أكد أهمية الحصول على نسخة مما يتوفر. لما توجهوا نحو رئيسهم الذي كان مشغولاً في تلقي هواتف هامة، حيث يتحدث مع المتصلين باحترام جم، ولم يتابع نقاشنا بعمق أفادنا أن المسودات ليست للتداول، وبعد لأي امرهم أن يكتبوا للاستشاري ليزودنا بالخريطة الرئيسية، وجدول معالم البناء لكل منطقة. كنت أعرف أن الرجل اسمه عبدالعزيز الثنيان، وهو من عائلة ذات اسم شائع في العارض، حيث يوجد بعضها في ضرماء وأخرى في العمارية، ولا علاقة بينهم سوى تشابه الاسم. ولما سألت والدي عنه أفادني أنه من ذرية الضرير، الأخ الأكبر للإمام محمد بن سعود، وكان لقب الإمارة حينذاك يقتصر على ذرية الإمام، لكن الشيخ أو الأستاذ كما يلقبه البعض، متزوج من حفيدة للملك عبد العزيز وخالها كمال أدهم، فزالت دهشتي من بعض ما لاحظته في

تلك الزيارة. وقد ألزمتني أشغالي الخاصة لمراجعته عدة مرات لاحقاً، حيث لم ألقى منه سوى البشاشة والتعاون رحمه الله، وبعد وفاة الفيصل جرى نقله لوزارة الخارجية، لما تولى ادارتها الأمير سعود الفيصل، كما قرر الملك خالد منح لقب أمير لكافة ذرية إخوة الإمام المؤسس، أما الملك سلمان (حفظه الله) فقد منحه لذرية أبناء عمه. آنذاك كانت بلدية الرياض لم تصبح أمانة، مثل مكة المكرمة ويتولاها مدير أو رئيس، لكنها بعد ذلك غدت أمانة مدينة الرياض، ثم أصبحت أمانة لكافة بلديات منطقة الرياض. لما راجعت الرئيس الجديد بعد الثنيان بسنتين لأمر خاص، وجدت نفس المبنى العتيق الذي تفوح بجواره رائحة المياه الأسنة، حيث مجرى البطحاء (الوتر) المكشوف، وعند المدخل سمعت صوته يلعلع في غرفة أعلى الدرج، بابها مشرع وأثاثها بسيط وأصحاب المعاملات البلدية يتزاحمون حوله، كل يحاول شرح ظروفه بينما يرد عليهم بأسلوب جاف، رافضاً التعاون لحل الإشكالات. حينها قررت ان أعرض عنه لكن زوج بنته كان زميل معنا في المركز، وحادث رجل في البلدية الذي سعد معي بالأوراق وأسر للأمين عن أمري، فنظر إلى متبسماً وأفهمني ان علي إزالة بعض ما شيدته. وما كدت أتحدث إلا وقد غدت نظراته شذرة، ورفع صوته يسألني إذا كنت أعرف (فلان وعلان) من كبار رجال الدولة، وأنه قد ألزمهم بهدم بعض مبانيهم، ولما شرحت صعوبة المكان وظروف الموقع رد بجرأة، أنني قد استغرقت شهرين في البناء، والهدم لن يستغرق سوى يومين! سحبت أوراقى وسارعت بالمغادرة متحسراً على غياب "التهديب الأدهمي" ورغم بقاء ذلك الرجل في البلدية نحو خمس عشرة سنة، فلم أراجعها بعدها قط، بل ركنت إلى تسوية كافة أموري عن طريق المدراء المباشرين، أو التصالح المالي مع لجان المخالفات إذا استدعى الأمر. في ذلك الحين كانت البلدية تتدخل في كافة تفاصيل البناء، بل ويخمنون ان المالك لديه نية سيئة، فهو يرغب عمل ذلك التصميم لكي يبدل استخدام المبنى لغرض آخر، حتى أصدر الملك عبدالله رحمه الله توجيهه بعدم التدخل في التوزيع الداخلي للمباني، واقتصار المراقبة على الأمور الخارجية فقط، والمالك حر في تبديل التقسيمات والحوائط الداخلية.

لما ذهبنا لمكتب استشاري التخطيط العمراني (دوكسيادس) أبدى تدمره الشديد من كثرة المراجعات والتعديلات والاقتراحات، وان عملهم انتهى قبل سنة وتلقوا ملاحظات اللجنة الفنية، وجرى التعديل المطلوب ويرغبون تسليم المخططات والتقارير، ومغادرة البلاد وقفل المكتب الذي يمثل نفقات باهظة، وأعباء على المقر في أثينا. تمكنا من الحصول على نزر يسير من المعلومات، لا يسد كافة الشغف بالعرفه لكنه أحسن من لا شيء. أثناء زيارتي لإدارة الشؤون الصناعية في وزارتنا، تباحثت مع أحد الزملاء في الأمر، وتصادف ان جاءه مندوب شركة استشارية أمريكية، متعاقدة معهم على متابعة الخطة الخمسية الأولى للمملكة، يقال له رافنتيادس وهو يوناني أيضاً، عرض التدخل في الأمر وبعد أيام اتصلوا بي للحضور واستلام نسخة من كامل المخطط والجداول والتقارير، فذهبت مع أحد خبراء اليونيدو وتسلمه. كانت فكرة تأسيس المركز

طموحة، وتقوم على إنشاء أربع إدارات منفصلة. الأولى للخدمات الفنية والهندسية، والثانية للبحوث الصناعية وقد تم انشاؤها، أما ادارة الوثائق والبيانات الصناعية، فتأجلت مع إدارة الإعلام الصناعي لنقص السيولة المالية. في تلك السنة (72م) أخذت أسعار النفط تتحسن، نتيجة توسع برامج الحد من التلوث في أوروبا وأمريكا، مما أدى لإقبال بعض آبار النفط القديمة في تكساس، وغدت أمريكا دولة مستوردة للبتروول. الذي تزايد سعره الى ما يقارب الدولارين. أدى ذلك الى زيادة واضحة في دخل المملكة والانفاق الحكومي، لكن معظمه توجه للإنشاءات ولم تزد رواتب الموظفين كثيراً، وأهم المباني هو مركز المؤتمرات وفندق انتركونتنتال المجاور. أيها الأحبة أعلم ان هذه الشطحة قد استطالت كثيراً، وابتعدنا عن عام 1260 هـ لما وطد الإمام فيصل حكمه في الرياض، لكنني كلما أردت العودة للسرد الكرونولوجي للمذابح التي تدمر بعضكم منها، ابي قلبي التوقف عن ذكر ما فيه عبر وفوائد جمّة، ولو أفسح الله في العمر والعافية، لتمكنت من بيان المزيد من تجاربي الشخصية. لقد صدق حدسي بأن الرياض الحديثة ستنمّد باتجاه الشمال الشرقي، حيث الغرب تحجره الأودية والشعاب والتلال الوعرة، وهذا ما جعلهم يسمونها قديماً (حُجْرُ اليمامة) وجنوبها (خرجُ اليمامة) حيث تتصرف السيول. بدا لي ان الكثير من المستثمرين غيري قد اطلعوا على التقرير اليوناني، وكذلك إحدى أخوات الملك التي كانت مزرعتها وقصرها، تقع في الفيافي الشاسعة شمال مركز المؤتمرات المقترح، ولما علمت عن وقوع أراضيها خارج الحزام الأخضر، يبدو أنها قررت بيع أجزاء منها قبل تسرب الأنباء، لكن لم يعرض عليها سوى هلات للمتر. لقد تندمت على طلب تلك الأرض القاحلة من والدها، لكن ظروف والدتها سليلة نبلاء القوقاز، لم تيسر السكن في زحام ديرة الرياض، سواء الشميسي أو المربع والشمسية، وربما تمت لو أنها شيدت قصرها بجوار المرافق. فعمتها الأميرة نورة الكبرى باعت بيتها (غرب الجامع) بسعر جيد، لما انتقلت للشمسية (شرق المربع) وسارع المستثمرون لهدمه وإقامة بيوت صغيرة مكانه، رغم انها طينية فقد تم بيعها بربح جيد. يشاء مُصرّف الصُدْف ومدير الأحوال سبحانه، ان يكون أحد عمال البناء الطيني آنذاك، قد تقدم في العمر وضعف عن العمل اليدوي، لكن طباعه الحميدة واخلاصه أبت على المستثمرين صرفه من العمل، فعاونوه لفتح مكتب عقاري صغير، ليتولى بيع تلك المنازل وتحصيل القيمة. كان الرجل قد احتاط لنفسه ويعمل أثناء فراغه في الإعاشة (الضيافة) وله علاقة مع بعض الأمراء والوجهاء، حيث يتولى شؤون الولايم بقدر واضح من حُسن الترتيب والهمة، يعاونه أفراد من ذريته الذين أحسن رعايتهم، ونشأوا على الخصال الحميدة والتهديب والفتنة، بخاصة وهم يتعاملون مع الكبراء والسادة. عرض على الأميرة أحد خدمها عن خبرة الرجل في مكتب العقار، حيث يعمل مع أبنائه في تسويق الأراضي والبيوت، بخاصة المناطق الشعبية بالشميسي وعليشة وأم قرو والحبونية، التي يرغب كثير من أهل الرياض السكن فيها لمجاورة أقاربهم، كما ان أحد أبنائه يعمل في كتابة العدل، ولديه خبرة في تسريع استخراج صكوك الملكية. وربما ان أحد ما قد نبه عن المخطط الجديد للرياض،

واحتمالات التغير الاقتصادي والديموغرافي (السكاني) للرياض، وتوجه مسار التنمية نحو الشمالي الشرقي بدلاً عن الجنوب. انتهى الأمر بصفقة شراء مساحة شاسعة من الأرض الواقعة بين المزرعة ومقر المؤتمرات، وبسعر يتجاوز الهللات التي عرضها تجار ثلثيم البطحاء، لكنه طلب من الأميرة مهلة شهور لسداد المتبقي من القيمة. سارت الأمور في البداية بصعوبة، واضطر الرجل وأبنائه للبيع بسعر لا يتجاوز ريالين للمتر المربع، حتى يسد بقية قيمة الأرض وهو ليس قليل بمعايير تلك الحقبة، ولم تكن هناك رغبة قوية في الشراء والسكن بمنطقة نائية، لكن من يتقي الله يرزقه من حيث لا يحتسب. في بضعة شهور حدثت طفرة عقارية هائلة، وتزايد الطلب على الأراضي شمال شرق الموقع المقترح لمركز المؤتمرات، ونشأت ضاحية العليا في الرياض، التي تطورات الآن لتصبح قلب العاصمة، وبخاصة المركز المالي بين مخرجي 3 و4 على الدائري الشمالي. لقد كان لتلك الأسرة دور فعال في ازدهار المنطقة، خلال الربع الأخير من القرن العشرين، ورغم ما قد يتقوله البعض عنهم، فإني أشهد انهم تعاملوا بطريقة أقل سوء من غيرهم، بخاصة من استولوا على أموال البسطاء في مساهمات رديئة. كما لم يبلغني عن تعامل بذيء من أحدهم، أو محاولة التحايل على المتعاملين، بل يعرف الجميع انه بعد وفاة والدهم استمر الإخوة، في الشركة على نفس المنوال، وحتى لما كبر الحفدة وتكاثرت الآراء وتقرر مغادرة البعض، فقد تم ذلك بأسلوب محترم وغير عنيف، كما هو معتاد في بعض المؤسسات التجارية. وإني أشهد بجودة أداء ذلك العمل، وبعده عن الرذائل التي يمارسها البعض، ممن ينضوون تحت قطاع عيال "الحمائل أو الحمائر!" وهي شهادة ممن لم يتعامل معهم بريال أو هللة في يوم ما، بل كان عبر نصف قرن يراقب أدائهم ويقارنه مع الغير، ويستشف منه العبرة ويستخلص الرشاد، في أداء الاستثمارات بالطريقة الصالحة والمفيدة. لكني تعرفت على خصالهم من آخرين مثل الشيخ شبية الحمد وغيره، أسأل الله ان يوفقتي والأحبة للاقتداء بالناجحين المخلصين ذوي الخلق الطيب، حتى تكون استثماراتنا بعيدة عن "السحت أو البجاجة" والله وحده الموفق.

انتهينا من الأمر الأول الذي بدأت في الصفحات السابقة، وهو يخص دور كمال أدهم في تأسيس مركز التنمية الصناعية، وانتقل الآن للأمر الثاني وهو علاقته بالسياسة العليا للدولة، وهذا الجزء كله آراء للمحرر وليس حقائق مؤكدة القصد منها استخلاص العبر، وليس فيه إشادة أو إساءة لأي شخصية. لقد فهمت ان ما أنيط بالرجل ليس إدارة الاستخبارات العامة في المملكة، بل جلب معلومات خارجية تتعلق بالمملكة، ونشر أسلوب التعامل الصحيح مع القيادة. ذكر والذي في مجلسه أنه والبعض كانوا ينتظرون مقابلة الفيصل في الخمسينات، ودخلوا بعد مغادرة أدهم فوجدوا ولي العهد متذمر، يطوي في يده مجلة لبنانية تمولها المخابرات الناصرية، فهم ان بها مقال عن إحدى كبيرات السعودية، اشترت سيارة فارهة بمقايض ذهبية، يبلغ ثمنها خمسين ألف ليرة (أكثر من مائة ألف ريال آنذاك) وبعد أيام صدر قرار منع استيراد السيارات الباهظة

الثلث. ومن المحتمل ان المعلومة قد وصلت، بدون أي تعليق أو قدح أو اعتراض، فهذه أمور لا يليق بذوي الكياسة والذوق التعرض لها، بل يكفي إيصال الحقائق الموثقة بدون تطرق لأي نقد أو اقتراح. لقد كان كمال أدهم أستاذ في ذلك الفن الرفيع، من حسن التعامل بدرجة عالية من التوقير لمن هم أعلى منه قدراً، ومن الطبيعي ان يكون أكثر من نهل من علمه هم أبناء أخته الأميرة عفت الثنيان، وآخرون ممن نشأوا في أروقة مدارسها، وهم كثيرون لا يتسع المجال هنا إلا لاثنتان، هما احمد زكي يماني وزير البترول، واحمد عبدالوهاب النائب (للحرم) رئيس تشريفات الديوان في حينه. من غرائب الصدف ان كلاهما كانا في جوار الفيصل، أثناء إطلاق الرصاص عليه في الديوان، بينما يستقبل وزير بترول الكويت، فقد كان الملك يرحمه الله يرتاح لمن لديهم ذائقة وفطنة لأسلوب المخاطبة والتعامل. ويشمل ذلك أقرب المقربين له بما فيهم أولاده، وروى أحدهم ان ابن للفيصل (خاله ليس أدهم) كان يعمل في جهاز حكومي مستقل، جاءه ذات يوم يستشيط غضباً مما يجري من أعمال، ويقترح سرعة التحقيق في الأوضاع وتأديب من يهملون أو يستغلون عملهم، وبعد أيام جاءه خطاب انهاء خدماته في المؤسسة. بينما ابن آخر للفيصل في جهاز مقارب وبدرجة أعلى، لم يتحدث عن تلك الأمور إلا بحذر (خاله أدهم) وبعدها صار وزيراً وبقي كذلك أربعين سنة، لأنه تعلم الحرص على صياغة عباراته، وان المهم ليس ما تقول بل كيف تقوله؟ فهل يا أحبتي في ذلك عبرة واضحة لكم بما فيه الكفاية؟ لقد كان الفيصل حساس للغاية مثل أكثر المدراء، من لهجة مخاطبته شفويّاً أو كتابياً، ولقد شاهدت بعيني برقية منه لأحد معاونيه، فيها "إذا عرفت من أنت ولمن تتحدث سنجاوبك" وقد قرأت الأصل وهو شكوى بأسلوب فيه قليل من الجفاف لما تعرض له من مظلمة. شاهد آخر على فطنة أدهم هو "خطة الكونتيللا" التي جرت في منتصف الستينات م، حيث في زحمة هزائم عبدالناصر في السويس، ثم الانفصال والحدود المغربية واليمن، واستهزائه بقاسم العراق الذي أعد خطة استرجاع فلسطين، فدعا الله ان يُرَجع له عقله، لكنه كلف ضباطه الأحرار بإعداد خطة مماثلة له. تتضمن حشد مائة ألف جندي، على مسافة 50 كم من حدود العدو الصهيوني في سيناء، على ان يقوم الجيش الأردني بحشد قواته على الجهة المقابلة، ثم تهجم القوتين في وقت واحد داخل صحراء النقب، ويجري فصل منطقة إيلات عن بقية الأراضي المحتلة. وفي أثناء ذلك تقوم القوات السورية والعراقية، بهجوم خاطف من الضفة الغربية متجهة للبحر الذي يبعد نحو 40 كم فقط، وبهذا تنقسم أرض العدو إلى ثلاثة مواقع، يسهل الإجهاز على من فيها! كانت الفكرة غريبة من عدة نواحي، أهمها تصور ان العدو "كسول وأبله" كما تفترض ان الأردن الذي يسببه ناصر ليل نهار سيكون رهن إشارته، وإن العراق وسوريا الذين لا تكف أبواقه عن وصم حكامها أنهم بعثيون خونة سيطيعونه. ثم أرسلت تلك الخطة للسوفييت لإبداء الرأي، وأثناء عرضها على لجنة من كبار الضباط، لاحظ أحدهم وهو كزخي مسلم ان اثنتان من كبار الضباط يهوديان يتهامسان. قدر ان نسخة من الخطة سترسل فوراً للصهاينة، وحرصته بقايا حميته الإسلامية على تسليم نسخة منها لدولة إسلامية رزينة،

لتحذر المصريين ان خطتهم وصلت للعدو وعليهم الحذر. استغل الكرخي زيارة للباكستان وطلب التوسط لإيصال ظرف مقفل للملحق العسكري السعودي، فيه نسخة الخطة مع توصية بتغييرها حيث وصلت لليهود. عرض الملحق ذلك على السفير ومعه نسختين، وطلب إرسال المظروف في الحقيبة الدبلوماسية لوزارته، كما أرسلوا نسخة للسفاح في الخارجية، وتسلم مندوب المعلومات الدولية نسخة، لكنه لم ينتظر الحقيبة الأسبوعية بل طار في اليوم التالي لجدة. بعد أيام طلب وزير الدفاع مقابلة مع الملك، وجاء يحمل الخطة طالباً سرعة إنذار المصريين بتسربها للعدو، ولما استدعي أدهم تبين أنه قد قطع عدة مراحل. فنظراً للتوتر الشديد في العلاقة بسبب حرب اليمن، ولحماية من أوصل المظروف المشمع للسفارة، باشر اتصال مع الأردن حيث كان أحد الضباط الإسرائيليين العرب (درزي) قد شاهد الخطة المرسلة من اليهودي السوفيتي، والتي لم يكثرث بها رئيسه حيث حصلوا عليها من عميل في الجيش المصري قبل شهر. تقرر على كل حال تسليم تلك الأوراق بالغة السرية لمصر، حيث كان أدهم على علاقة مع أحد معاوني عبد الناصر. في الحرارة اللاهبة لصيف سيناء عام 67م قرر ناصر وعامر حشد عشرين ألف جندي في الكونتيليا، وتوقيع اتفاق تعاون عسكري مع الأردن، والمضي في تنفيذ الخطة المسربة، حيث تأبى البلاهة ان تترك أهلها! أثناء توقيع الاتفاق حذر الملك حسين من انكشاف خطة الهجوم، وانه رغم قرب حدود مصر والأردن في جنوب النقب، إلا ان خطة فصل إيلات عن شمال النقب لن تكون سهلة. لكن ناصر أجابه ان لديه حزمة من الخطط، مثل القاهر والناصر وفجر وأسد وسهم! كما أعد موقع آخر في أبو عجيلة شمالاً، به عشرات الآلاف من الجنود ومئات الدبابات والمدفعية والصواريخ، لتعزيز الكونتيليا ثم اقتحام صحراء النقب، حيث يجهل العدو الحرب على الرمال. ورغم فطنة الحسين وإدراكه لسذاجة تلك الخطط التي أعدها أصدقاء عامر، الذين يسميهم شرفاء الضباط المصريين (أهل التعميرة) حيث يمضون ليالي المتعة مع الشلة السيئة، في وضع خطط ساذجة لا تفلح إلا ضد بلهاء أو حشاشين. لكن الملك مغلوب على أمره، فأكثر سكان بلده من الفلسطينيين، الذين خدعتهم أبواق الناصرية والشقيري بقرب القاء جيش العاهرات في البحر، فخرجوا في مظاهرات حاشدة ضده. فاضطر لقبول اقتراح إرسال ضابط مصري كبير (رياض) إلى الأردن، ليتولى توجيه المعركة المحتمل نشوبها، رغم ان عبد الناصر وحتى قبل أيام قليلة يسبه هو وأمه الشريفة زينة.

لقد أعد العدو خطة فتاكة مضادة، جعلت خنادق الدفاع أتون من الجحيم في الخامس من حزيران، ثم أتت الطائرات القاذفة وصبت الحمم، وبعد تدمير المدفعية والمصفحات، جاءت الهليكوبتر لتتصيد الجنود المشاة حفاة عراة غرباً، وسقط آلاف الشهداء فحسبنا الله على من أوقعهم في ذلك، وجلب الخزي والخسارة على العرب والمسلمين. بعد سنوات على تلك المأساة، وبعد حرب رمضان 93هـ تلقى والدي دعوة من أحد الأكابر، لحضور وليمة لأحد أعوان السادات، الذي تولى منصب إدارة هيئة

التعاون الإسلامي في جدة، يقال له الفريق حسن تهامي، وقد حضرت المناسبة معه حيث كان يرحمه الله قد ضعِف. لقد هالني ما لاحظته على التهامي من نظرات وحركات وكلمات، تشير لقدرة غير يسير من الاضطراب، فقد تحدث عن قيامه بإلقاء القبض على ناصر ورفاقه في سلاح الفرسان، قبل عشرين سنة وفرض رأيه عليهم. كما ثرثر عن دوره في نقل حقيبة ملايين الدولارات الأمريكية، التي أحضرها الجاسوس كوبلاند، وادعى أنه استخدمها لبناء برج جزيرة الزمالك، وصممه على شكل قضيب من أزهار اللوتس الفرعونية، ينتصب في السماء على ارتفاع 600 قدم كإشارة بذيئة لايزنهاور! ثم انتقل بعد ذلك لإخبارنا عن بطولاته في الدفاع عن السويس، وكيف منع الصهاينة من دخولها وحمى المدنيين من البطش. خرج معنا اثنان من معارف والدي رحمه الله، وبين لنا أحدهم زيف ادعاءات التهامي، وان لا دور له في تصميم برج القاهرة، الذي قام به شبيب اليهودي. أما السويس فإنه أثناء حرب رمضان عبر كافة الجيش المصري القناة شرقاً، بدون خطة لمواجهة احتمال عبور مضاد للعدو، وذلك من ثغرة الدفرسوار كما سماها هيكل الكذوب. وقاد العملية شارون الخبيث الذي اقتحم سيناء عام 56 ثم ثانية عام 67م، ثم عبر القناة من شمال مدينة السويس في 73، تاركاً إياها على ميسرته معلناً أنه متوجه لقصر القبة للقبض على السادات. وتحدث الآخر عن ضعف تدريب القوات المسلحة، فبدلاً من دورها في دحر هجمات الأعداء، يركزون على بناء غرف التعذيب في السجون الحربية، لينكلوا بشعوبهم وبخاصة من يرفض الانصياع للحكم العسكري السيء. أما والدي فقد عبر عن استيائه من التفكير العسكري السطحي، الذي تسبب في فقد أمة الإسلام بيت المقدس. أما محرر هذا المخطوط فمندهب من أقوال التهامي عن وجوب وضع خطة سريعة لتحريرها، وبعد ثلاث سنوات أراه يهرول وراء السادات لزيارة الصهاينة، ثم توقيع اتفاق سلام معهم أضعاف فرصة استعادة حتى الحرم القدسي. ما أثار دهشتي في ذلك اللقاء قول أحدهم بأن كمال أدهم كان يدفع لرئيس مصر مشاهرة بالدولار الأمريكي، لكن الشيخ إبراهيم الذي يعمل في رابطة العالم الإسلامي، نفى ذلك بقوة قائلاً ان الاجتماع الإسلامي في مكة عام 54م، اقترح تأسيس لجنة استشارية لمتابعة أنشطة شرح مزايا الدين الحنيف، ومجابهة الأكاذيب حوله وبخاصة ما يروج له الفاتيكان. وقد كان عبدالناصر معترض على أي تنظيم إسلامي، رغم أنه كان عضو في جمعية الإخوان بمصر، لكن بعد حادثة المنشية واطلاق الرصاص عليه وهو رئيس للوزراء، ثم إعدامه لعبداللطيف ورفاقه جعله يشعر بالسخط الشعبي ضده. فأراد ان ينفي عن نفسه تهمة مناوئة الإسلام، ويُبقى علاقته مع الملك سعود وطيدة، ليعاونه في خطته للاستيلاء على شركة قناة السويس، وازاحة القوتلي عن رئاسة سوريا، ليتمكن من تأسيس امبراطوريته من المحيط الهادر للخليج الثائر. لذا وافق ان يشارك السادات في عضوية اللجنة آنذاك، وان يستلم المخصص لأعضائها كافة لقاء أتعابهم. وبعد ذلك بسنوات قليلة تأسست رابطة العالم الإسلامي في مقرها المؤقت بقصر السقاف، واستمرت تلك اللجنة في عملها ويستلم أعضائها ما تقرر لهم مسبقاً، ولا صحة البتة ان الشيخ كمال كان يدفع لرئيس مصر

(لاحقاً) رشوة بالدولار، كما روجت له مراكز القوى، الساخطة على تولى السادات رئاسة مصر خلفاً لناصر. وفي نفس الجلسة تحدث البعض عما تقوله المغرضون، عن استيلاء جيهان على بناية فخمة في الجيزة، عن طريق موظفي الضرائب في مصر أثناء فترة تولى ناصر الرئاسة. لقد كانت الغالبية آنذاك معجبة بالسادات بعد حرب رمضان، قبل ان يعبث كيسنجر بعقله ويقوده للتخلي عن قضية فلسطين، لقاء استرداد سيناء بدون سيادة عليها. ومما استغربته ان ذلك الفريق التهامي كان يثرثر عن وجوب سرعة تحرير القدس المقدسة، وبعدها بسنوات قليلة شاهده خلف السادات يصفق لاتفاقية الكامب المخزية، خاصة أنه الوحيد من صحب ثورة ناصر الملتحي! والمكثّر من أقواله عن التمسك بالإسلام، لكن تلك طبائع الحكام العسكر الذين قادوا أمة العرب للكوارث. ولا أسوء منهم سوى قادة حركات التحرير والمقاومة، الذين باعوا فلسطين لليهود وينهمون ملوك العرب بالخيانة، وهم المفسدون الذين لا يشبعون من ابتزاز أموال النفط، لينفقوها على المساكن الفارهة قرب الشانزليزيه. ولا يجاهدون إلا بقتل بعضهم أثناء تناول السحور في رمضان، أو بخطف الطائرات أو بتفجيرات عشوائية تقتل النساء والأطفال، من المسلمين وغيرهم وتجلب سخط الناس علينا. ولم تحرر قيد أنملة من فلسطين خلال ثمانين سنة من نضالهم الأهوج الطائش، فعليهم من الله ما يستحقون لقاء خيانتهم.

لقد زادت الحساسية أثناء تلك الشهور في الرياض، حيث بعد حرب رمضان 93هـ وإيقاف ضخ النفط عن الدول المساندة للعدو الصهيوني، ارتفع سعره بشكل مفاجئ لنحو عشرة دولارات للبرميل، مما أدى لزيادة هائلة في دخل المملكة، مع بقاء نظام المتابعة السابق بدون تماشي مع الوضع الجديد. فزادت الأعباء على رئيس مجلس الوزراء، وتراكمت أوراق المشاريع المقترحة، بحاجة اعتماد المقام السامي حسب الروتين السابق، مما خلق ضغوط هائلة على القدرة البشرية للتحمل. وزاد الطين بلة الضغوط الأجنبية، فبعض الدول الغنية المتعرضة للمقاطعة، هددت بقطع امدادات الغذاء والدواء عن البلاد، وأما الفقيرة فقد احتشد زعمائها في المطار يريدون نصيبهم من ذلك الدفق الهائل من الدولارات النفطية، خاصة أولئك الذين قرروا قطع علاقتهم مع الصهاينة، ويأملون استلام مقابل ذلك. وكان بروتوكول الاستقبال والتوديع يستهلك ساعات ثمينة من متخذ القرار، فتتوتر الأعصاب ويتعكر المزاج وتضيق الصدور. كنا في افتتاح معرض الصناعة الوطنية بجدة في منتصف عام 94هـ في معية وزير التجارة (رئيس المركز) ولما تطرق أحد الصحفيين لمسألة زيادة الرواتب، أجابه الراعي ان المجلس قرر ذلك وسيذاع بعد أيام، مما قد يجعل البعض يظن ان القرار لدى غيره فألغي! أدى ذلك لغیظ وسفر أعقبه حملة اعلامية دولية مسيئة ضد البلاد ورموزها، لابد أنها لم تكن ممولة من مصادر عربية. فمصر السادات لا تتدخل في شئون الجيران كما في زمن الناصرية، وعراق البكر في توتر مع شاه إيران، وأسد سوريا مشغول بالجولان وكونه علوي. لذا فربما ان تلك الحملة الكريهة المسيئة

للسعودية كلها وليس لفرد معين، نبعت من مصدر قريب وليس خارجي، ولا أود الخوض فيها لكنها موثقة بالتفصيل في وسائل إعلام أوروبية وأمريكية في تلك الشهور. في نفس السنة عقد وزراء الدفاع العرب لقاء موسع، عقب انتصارات رمضان على الصهاينة، التي أرى أنها أول حرب بدون هزيمة كاسحة، في أعقاب 48 و56 و67م حيث تمكن العدو فيها رغم خسائره الفادحة، من الوصول لمسافة 80 كيلو من القاهرة و35 كيلو من دمشق. لقد قرر الوزراء في لقائهم ذلك، توحيد جهودهم لتحرير فلسطين، لكن الأمر يتطلب توحيد رتب المقاتلين، حيث كان في بعضها بكباشي ويوزباشي، وفي أخرى رئيس ووكيل قائد وزعيم، وفي غيرها مقدم ونقيب وعميد. ولما أرسل ذلك للعاهل لإبداء الرأي، رفضه لأن الأمر كان يتطلب الاستئذان قبل الرفع به؟ وتباينت الآراء فمن قائل ان تزايد الإيرادات يستدعي ضبط التصرف، وآخر يرى وجوب المرونة حتى لا تتعطل عجلة التنمية، خاصة ان ميزانية الحكومة قفزت من 4 مليارات إلى 100 مليار ريال. لقد وقع وزير الدفاع في ورطة من رفض الاقتراح بلا أي مبرر، واستدعى الحال طلب توسط المستشار الخاص، رشاد فرعون الذي كان على انسجام مع أدهم، وهو في الأساس طبيب سوري في مركز دخنة الصحي، الذي يقدم رعاية أولية لسكان الرياض زمن الملك عبدالعزيز. وعلى عكس أدهم لم تكن له اهتمامات بمشاريع الدولة، أو تحقيق أرباح من المساهمة في مقاولات انشاء المباني الحكومية، لكنه يحصل على عطايا وهبات جزيلة. أما ولده غيث فأسس شركة {ريدك} ذات اليد الطولي في الحصول على أرباح طائلة من تلك المشاريع. وبعد انتقال الفيصل لرحمة الله توجه لاستثمارات خارجية، في الأردن والجزائر ودول أجنبية، وفي تسعينيات القرن العشرين أدين في عدة قضايا مالية. كان أشهرها إفلاس بنك الاعتماد الدولي، الذي أداره حسن عابدي الباكستاني، ثم جرت تصفيته وضياع أموال كثيرة. اختلفت الآراء حول ملابسات قضيته، فيدعي البعض أنها مؤامرة ضد الإسلام، وآخرون قالوا إنها قضية نصب واحتيال؟ أما والده الدكتور رشاد فقد تمكن من الفوز بحلقة قضية مسميات الرتب العسكرية حينذاك، على أساس ان رتبة رئيس أو قائد أو زعيم تتناقض مع تنظيم المملكة! كما كان يقدم المشورة دوماً على أساس تفادي أي تصادم خارجي، والاستناد على القوى العظمى للتغطية على أي إجراء دولي. أما الشؤون الداخلية مثل سلم الرواتب، فقد كان يكره الانخراط فيها، حيث لم يستسغ الأمور المحلية من لباس وطعام أو لهجة وفكر. ولا يتعامل معها إلا بالمستغرب ولا غرو في ذلك، ففي زمن الملك عبدالعزيز قال له أحد رؤساء العشائر ان حتى اسمه مغلوط، فالخالق يقول "وما أمر فرعون برشيد" فكيف يُسبغ عليه الرشاد؟

كان أحد كبار إخوة الفيصل ذو وعي للأحوال، ولما اختلف الملك سعود مع بعض إخوته، قال ذلك الأمير ان الخلاف مع سعود لا يجيز التعدي على الدولة السعودية، ورفض مماشاة إخوته أو إلقاء الجواز على مدخل اللسان جورج، وكوفئ بجعله مستشار خاص لعدة سنوات. أثناء تلك الحقبة من الغنى المفاجئ والنزق والمشاكسة، جاء

للدخول كعادته وفوجئ بالطلب منه ان يجلس ريثما يتم إنهاء أوراق هامة، لكنه لم يبالي وولج للداخل غاضباً، وقال ان صالح قد شاخ وربما خرف وقد أن الأوان لمن هو أفضل منه إدارة. بعد صمت طويل وتقليب الأوراق سمع الجواب بان صالح لا يتصرف إلا بأمر، وهو لم يبلغ السبعين بعد ولم يُخرف! وفي اليوم التالي وصله خطاب اعفائه من العمل بتوقيع صالح. سارت الأمور بشكل مضطرب يثير القلق، خاصة لما أقبل موسم حج 94هـ في غياب رئيس لجنة الحج العليا، لكن الله سلم وتمكن نائب وزير الداخلية من تدبير الحال، رغم صعوبات جمة حيث زاد عدد الحجاج بشكل ضخم، حيث لا حدود على حصص الدول كما هو الحال الآن، وزيادة إيرادات الدول الإسلامية من البترول. فأصبحت خطط إمداد المشاعر بالغذاء والماء والدواء، غير قادرة على توفيرها لتلك الحشود الهائلة، ولم يعد مشعر منى يتسع لمزيد من المخيمات. أما المنازل حول الحرم المكي فقد ارتفعت ايجاراتها، فبلغت لبعض المباني خلال شهر الموسم ما يزيد عن ربع مليون ريال، وكانت قبل سنتين في حدود ثلاثين ألف. وعمدت بعض الدول النفطية مثل إيران الشاه وليبيا القذافي، للتوسع في التباهي بمقراتها البذخة، وعانى بقية الحجاج من نقص المرافق. ولولا لطف الله ثم تدخل العم الأكبر (الأمير عبدالله) لتفاقت الخلافات أكثر، فلم يعين وزير داخلية آخر وعاد الفهد من الخارج بعد الموسم، وصدرت الموافقة بزيادة المعاشات. لكن وسط تلك التوترات الكريهة، ظهرت على السطح قضية قديمة منذ عشر سنوات، فقد أعيد من أمريكا أحد الأمراء، الذي سافر هناك بعد وفاة أخيه في حادثة احراق مبنى التلفزيون، وتزوج من امرأة حدثت عليهما مشكلة مع الشرطة، وتقرر تسليمه لسفارة بلاده. ألح في طلب مقابلة الملك الذي سبق ان أخبره بوجود أخذ موافقة وزير الداخلية قبل سفره، وهو بدوره أحاله للملك لأن تلك صلاحيته وحده، وأثناء النقاش بدرت من الأمير تعابير غير طيبة، فخرج متوتراً مع أمر بعدم السماح له بدخول الديوان رغم محاولاته العديدة. وفي المنزل كانت النسوة من ذرية محمد بن طلال الرشيد، آخر حكام حائل تصب بعضهن الزيت على النار، والأمير في شدة التوتر والغضب، فزوجته الأمريكية لا تستطيع القوم للرياض، وهو لا يقدر على السفر لها. بعد ثلاثة شهور من نهاية موسم الحج، تصادف حضور أحد زملائه في كولورادو، في معية الكاظمي وزير البترول الكويتي، وتمكن من الدخول مع الوفد للديوان، وتحت بثته فرد صغير قضى به على الفيصل رحمه الله. كان أمر الله "قدراً مقدوراً" وعلى الأحبة استخلاص الكثير من العبر منه، لكن ما يثير الحيرة هو أين تعاليم كمال أدهم، وكيف سارت الأمور بطريقة تناقض كلياً أعماله وارشاداته خلال أربعين سنة. يهمني كثيراً معرفة ذلك وحتى الآن لا أدري، حتى استخلص العبرة المفيدة في بث شعاع على الطريق المظلم والوعر، ومازالت بحوثي مستمرة بدون طائل. أخبرني أحد المعارف ان صحيفة في جدة قد نشرت سلسلة مقالات عنه، لكنني لم أجد فيها سوى كلام هامشي من المخالطين أو العمال. إنني أعرف جيداً كيف تلقى أكبر أبناء الفيصل صدمة النبأ في الطائرة، وكذلك أصغر أبناء عفت الثنيان (تركي) ووالدته رحمها الله في المعذر، أما أدهم فقد كان في ضحى ذلك اليوم المشؤم

في قصر جدة. ولا يهم كثيراً معرفة رد فعله بعد ان فقد في لحظة كل شيء، بل ما يهمني معرفة فكره في النصائح والمعلومات التي قدمها طيلة العقود الماضية، وهل التقيد بها أو ان مخالفتها أديا للكارثة على رأس هرم الدولة؟ وهل من يعرف كيفية تفادي الاضطراب (والشوشرة) في الحالات الكريهة وتجنب الوقوع فيها، هو نفسه من يقدر على توفير آليات الخروج منها إذا حدثت، أم ان ذلك أمر آخر يختلف تماماً؟ ان سؤال المليون ريال هذا يهمني كثيراً ليس من أجل التطفل، بل لاستخلاص العظة والعبرة، مما حدث في بلادنا الغالية مطلع الربع الأخير من القرن العشرين. وحرصاً مني على معرفة ما يتوفر من معلومات عن الشيخ كمال أدهم، فقد كلفت أحد من يقيمون في مصر لتزويدي ببعض ما قد يتوفر له، حيث كان الرجل يعيش هناك في أواخر حياته، ويتابع مركز تأسس باسمه في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، حيث أنفق عليه ملايين الدولارات، ويختص بتطوير ونشر المعلومات في العالم العربي. وقد تأملت من ذلك ان يتوفر بذلك المركز، ما يفيد من وثائق أو مذكرات وكأنه بنك معلومات، قد تكون الصندوق الأسود الذي يوضح كافة أحداث الرحلة قبل الكارثة. لكن ظني خاب كلياً فبدا ان ما لديهم لا يتجاوز لوحة المدخل اللامعة، فلم يأتني الرجل سوى بمعلومات مسيئة، عن أمور في فندق سميراميس وقسم قصر النيل، وكلاهما قريب من ميدان التحرير وتلك الجامعة، وهي أمور غير طيبة لا نود ذكر شيء منها في هذا المكتوب النزيه. بعد انتقاله لرحمة الله في خاتمة القرن، كنت في لقاء خاص حضره عدد من كبار رجال الدولة، وتطرق الحديث لسيرته وتباينت الآراء بشأن دوره في سياسة البلاد خلال نصف قرن، فأشاد البعض بسعة اطلاعه وعمق فكره واخلاصه، وما وفره من معلومات خارجية، واقتراحات لطرق التعامل السديدة مع الحلفاء والأعداء والمتقلبين. بينما انبرى اثنان فقط للخوض في خلاف ذلك، ولم يكن موقعي في المجلس يتيح لي سوى الإنصات، والتسجيل الذهني لكل ما يقال عن أحداثه. في الختام بين أحد الوزراء السابقين وجهة نظر خاصة، وهو ان الرجل قد أعطي دور افتراضي يتجاوز الواقع، ثم سأل زميل مثله عما إذا كان يظن ان الفيصل كان يسمع سوى بنات فكره؟ ثم أكد ان الملك كان يهمله تلقي الأنباء، أما القرار فهو وحده من يتخذه، وهو يسمع من أعمامه وإخوته والمختصين كل في شأنه، ثم يتخذ القرار فيما يراه ملائم للحالة. في الأسبوع التالي كنت في لقاء ثنائي مع أحد الوزراء السابقين، وفي النهاية تطرقنا لأدهم وتبسم وأكد الرأي السالف، حول عدم إعطائه حجم يتجاوز ما كان عليه. ثم أردف بالقول ان أهم مزايا المرحوم هو حصافته وبغضه للتصادم، وليس درجته العلمية أو ما لديه من معلومات ولا قدرات فكرية، وختم تعليقه بالقول ان "الموظف التصادمي" يشكل خطر على نفسه ومن حوله. وحيث ان علاقتي مع معاليه طيلة ربع قرن، كانت وثيقة سواء في التدريس، أو في النهاية بصفته رئيس مباشر لسنوات، فقد تمنيت ان لا أكون أحدهم، عندها نظر إلي متبسماً وقال بلى لكن في حالات غير كثيرة. عليكم الحذر أيها الأحبة ألا تكونوا تصادميين، خاصة مع من هم في صفكم أو أعلى مرتبة، فحينذاك لن ينفعكم تقديركم في الدراسات بعد الجامعية، ولا اخلاصكم وتفانيكم في أداء العمل على أكمل

وجه، وسترون من هم أقل منكم يتجاوزونكم في الترقيات، وفي ذلك عبرة لأولي الألباب. في ختام هذه الفقرة يلزمي التنويه إلى ما سبق ذكره، سواء في مقدمة السيرة أو في مطلع هذا الفصل، وما كررته في المخطوط عدة مرات بشأن وجوب القراءة، على أساس ان جميع ما ورد فيها هو أقوال منقولة أو مسموعة، وليست حقائق موثقة أو أخبار مؤكدة. كما يلزمي أن أنوه ان زمننا هذا قد تغير، عما كنا عليه قبل أربعين سنة، وقد ذهبت حغبة "من قال لك ان تقول هذا؟" ففي زمن ولاية سلمان رعاه الله وسمو ولي عهده أرشده الله، تنورت العقول وزال الظلام، وهاهن بناتنا يقدن مركباتهن محتشمات أسوة بالصحابيات الفاضلات، وعما قريب سيقدن الطائرات بعون الله. وزال المرتزقة الذين لم يخلجوا من وسم من تقود مركوبها (سواء سيارة أو ناقة أو أتان) أنها عاهرة، ووثقوا ذلك كتابيا ولم يعد لهم مركز ليدعوا ان آبائهم الضالين، لم يقولوا إن من يركب السيارة أو يستخدم الهاتف كافر. إن ما تحقق في بلادنا من نهضة وتنوير، أدى إلى تخفيف الكمامات على الأفواه، وسنرى المزيد من الفضائل إذا لم نتخرج من سماع العبر من ماضيها، والنصائح من حاضرنا حتى يصير الغد أفضل من الأمس، ونتعلم من أحداث الماضي لتلمس معالم الطريق للمستقبل، والله المرشد إلى سواء السبيل.

بعد الاستطراد المستفيض الذي أمل الا يكون مملاً لبعضكم، إلا انني رأيت فيه عبر جمة لا تخفى على نبهاتكم، ومن المعلوم في تركيبة السير الذاتية جواز الفلاش باك أو فورورد، لمصلحة ترابط النص وسهولة التعبير. لكننا الآن سنعود للبدائية حيث توقفنا عند زمن عودة الإمام فيصل بن تركي من منفاه عام 1259هـ، واسترداده حكم البلاد من عبدالله الثنيان. وكان ذوو العلاقة بذلك الحدث هم آل ثنيان وابن رشيد والسداری وسبعان عنيزة. تحدثنا في الصفحات السابقة عن الثنيان، وبخاصة شيختهم الأميرة عفت رحمها الله وكذلك أخوها كمال أدهم. ومنهم أيضاً الأمير عبدالعزيز الثنيان، الذي تعاملت معه أثناء رئاسته لبلدية الرياض في النصف الثاني من الستينات، وكان مثلاً لحسن التعامل ودمائة الخلق، وبعد وفاة الفيصل انتقل لوزارة الخارجية، التي تولاها الأمير سعود شقيق زوجته لأربعين سنة. فجع الكثير في الشهور الأخيرة من القرن العشرين، بوفاة الثلاثة الملكة عفت والشيخ كمال والأمير عبدالعزيز أسأله تعالى ان يرحمهم، ويرحمنا جميعاً إذا صرنا لما صاروا إليه، ويحسن خاتمتنا وكفى بالموت عظة وعبرة. شخصية مميزة أخرى من آل ثنيان بن سعود، هو سمو أمير القصيم السابق سعود بن هذلول الثنيان، الذي تصادف دخوله علينا ونحن نعود أحد معارفنا في عيشة، ربما لمعرفة سابقة أو جوار. كان ذلك الأمير في قمة المزايا الشخصية من وقار وسمت عالي، وحسن استماع ولطف الردود المقتضية، على ما دار في المجلس الذي حضره أخلاط من الناس، بعضهم قليل الإدراك أو غير موفق التعبير. تحدث مع العم رشيد الذي كان برففته أيضاً الأخ زيد بن حسين، كما خصني بالسؤال عن والدي الذي كان على معرفة به، حيث له علاقة وطيدة مع الفيصل في مكة ربما لرضاع

بينهما، وكان والدي حينذاك على اتصال وثيق معهما، كما كانوا في الحرب التي شنها الإدريسي مع إمام اليمن ضد المملكة في 1353 هـ. وقد نوه الأمير بدور عبدالله بن خثلان في الهجوم على الحديدية، ثم الصعود لبلاد زبيد والاستيلاء عليها، قبل ان تصلهم أنباء اتفاقية الطائف وأوامر الانسحاب، وكيف عاد والدي إليهم في مخيم القيادة متخن بالجراح. ولما سأله العم رشيد عن عدم تفصيل ذلك في كتابه عن "تاريخ ملوك آل سعود" فأجاب انه موجز وقد ترك الإسهاب لغيره. تكلم أحد الحضور بلهجة قصيمية عن ذكره لمقتل شيخين جليلين من آل خثلان، عند سرد أحداث الالتحام بين الملك عبدالعزيز وحفدة عمه الإمام سعود في الحريق، فأشار للعم لكي يسرد ما لديه. فأكد ان الكتاب كما قال سموه موجز، وتلك حادثة واحدة (الصباحة) قبل قدوم الملك للحريق، وأكد ان شهداء آل خثلان في دفاعهم عن بيعتهم للإمام عبد الرحمن أكثر من عشرة، فقد استمروا لشهور يرفضون نقض البيعة ويوفون بالعهد. تحدث الأخ زيد بن حسين رحمه الله، وبين ان جده (أبو عبيد) قد استشهد في تلك الموقعة، حيث ان الملك قد تأخر مجيئه للبلدة لشهور بسبب أسر شقيقه سعد عند شريف مكة. وعند وصوله وتحصن المناهضين له في الوسيطاء، أمر عبدالعزيز ببناء جدار أثناء الليل خارج مدى رمايتهم، وفي اليوم التالي يحتمون خلفه ثم يبنون جدار ثاني أقرب للقصر ليلاً، وهكذا يستمرون كل مساء لحين الوصول للبوابة الكبرى. لكن البغاة أعدوا ذات ليلة خطة ظنوها مجدية، فقد رتب القناص مشاري نشر عدد من الرماة في أعلى شرف السطح، حيث قدروا مكان بدء البناء في الليلة التالية، وركزوا بنادقهم خارج المزاغير، بحيث تصب نيرانها على موقع البناء بعد حلول الظلام. وقد كان الجد يشرف على عمال البناء، وعندما بداء يوجههم لإحضار اللبنات والطين ومستلزمات الإنشاء، سمعوه فباشروا الرماية فقتلوه مع آخرين، ورغم ان الملك كان يتلقى العلاج من جراحه، التي أصيب بها من الكمين الذي جهزه العدو لهم عند العقبة على مدخل الحريق، فقد توجه بنفسه نحو الخط الأمامي. وأخذ يحث الرجال للتقدم في العمل سريعاً، حتى يصلوا قرب البوابة وتنتهي تلك المحاصرة المؤلمة، التي آذت كافة سكان البلدة، إلا ان المعتدين المتحصنين داخل الوسيطاء كانوا يعملون على خطة بديلة. وذلك بإنجاز نفق من أسفل البستان الخلفي، واستخدام تربة الحفر كدمية للبوابة الرئيسية، مما يجعل من الصعب فتحها من الداخل أو الخارج، وقام بعض الخونة بتجهيز ركائب لهم في نهاية النفق، هربوا عليها للحوطة في جنح الظلام.

سارع أحد الحضور لسؤال الأمير، عن السبب الذي دفع الأمراء العرائف (حفدة الإمام أبو هلا) للذهاب لقرية صغيرة لقيرة مثل الحريق، لتكون مركز حركتهم الهادفة للاستيلاء على الحكم، أجابه صاحب الدار المتوعدك ان الحريق بلدة صغيرة لكنها ليست قفيرة، وهاهم أهلها معنا يوضحون لك، أما ذرية الإمام سعود بن فيصل، فهم لا يحبون لقب العرائف المشهور عند العامة. لم يكدهم العم بياشر رده على المقولة، إلا وانبرى أحد الحاضرين ليطلب منه التريث، ثم باشر بيان ان العريف كان لقب الإمام سعود، الذي

ورد في المصالحة بينه وأخاه الأكبر الإمام عبدالله، بوساطة ابن مرعي حاكم عسير عام 1283هـ. بحيث يكون الإمام هو لقب عبدالله، وأما سعود (أخاه الأصغر) فتكون له ولاية العهد، وسلطة كاملة على جنوب العارض و "لقبه العريف" ومعناه الرأس أو العالي أو العارف أو ذو المعروف. كما تكرر اللقب بعد سنوات في المصالحة التي توسط فيها حكام البحرين، ولا علاقة البتة بين ذلك اللقب الفخم مع أسلاب الإبل، بل هو محض تدليس من المغرضين بقصد بث الفتنة ولم يتقبل ذلك المدركين. تدخل في القول أحد الجالسين، فقال إن اللقب إذا كان يحتمل تأويل، فعادة ما يركن الكبراء للتفاخر به حتى لا يصبح معرة، بل يتفاخرون به ويعرضون عن أقاويل السفهاء. وذكر ثلاثة أمثلة أولها "صنيتان" الذي أطلقه البعض على ابن عم الإمام فيصل بن تركي بن عبدالله (الأمير عبدالله بن إبراهيم بن عبدالله) لثقل في سمعه، ولما شاع ذلك عند الناس خشي أن يكون محل تندر، فأخذ يعتز به ويذكر ان معناه الرئيس أو الزعيم، وصار بعض زعماء العشائر يسمون أبنائهم به وهو غير معروف المعنى. ثم ذكر مثال آخر وهو الأمير الجليل جلوي بن تركي الأخ الأصغر للإمام فيصل، ومعناه معروف وهو المطرود أو الهارب أو الشارد، وذلك لأنه ولد لما كان والده (الإمام تركي بن عبدالله) مختبئاً في تلال نعام، واسمه محمد لكن لما شاع اللقب صار يفاخر به، بل قيل أنه تخلى عن اسم محمد وأطلقه على أول مولود له، وقد عارض العم رشيد ذلك حيث أكبر أبناء جلوي هو مساعد. لم يأبه الرجل بل استمر في كلامه، فقال ان عبدالعزيز بن متعب كان بعض الخدم يستهزؤون بكثرة نومه العميق، فلا يستطيعون ايقاظه لأنه يغط نائماً كأنه جنازة، ولما شاع ذلك اللقب أخذ ابن رشيد يتفاخر به لكيلا يكون معرة، ويؤكد لمجالسيه ان المداوي لما حضر لإخراج رصاصة فرد من ساقه، لم يواجه أي ألم وكان الطلقة تستخرج من جنازة وليس من رجل حي، ويعد ذلك من قوة الشكيمة والصبر على مواجهة العدو، لكن روضة مهنا أنهته بخلاف ذلك! تكلم الرجل الذي قال ان الحريق بلدة حقيرة، فبين قصده أنها لم تكن لها اسهامات في أحداث العارض القديمة، فلماذا اتخذها العرائف مركز قتالهم ضد عمهم؟ وهي لم تؤسس إلا قبل ثلاثة قرون لتكون منفى للخاطئين وسوق للنخاسة، وذلك بعد سقوط الدولة الجبرية المتسعة النفوذ، وبعد ان سيطر عايدية قحطان على كافة نواحي خرج اليمامة. وقبلها كنتم يا سبيع تقطنون المناطق من الحاير حتى المحمدي ونعام وبلاد ليلي العامرية في الأفلاج، وهذه من مواقع عشائر بني عامر بن صعصعة، لكن تغير الطبائع أدى لمغادرتكم بعض تلك المناطق، وظهور بلدة الحريق التي جاءها أخلاط من بادية العراق والشام. ولم يرد ذكر للحريق في الشعر القديم، مثل عروة بن الورد الذي جاء لعراف اليمامة للعلاج، ولا عند جرير الذي عاش بين الوشم وجنوب اليمامة. لما ساد الصمت ولم يتحدث أحد عن مضامين تبريره لضعف الحريق، بادر بسؤال الأمير سعود عن دور لجان في الزبير والبصرة، للنظر في إعادة الجنسية السعودية لبعض عشائر السنة، سواء من تجنس منهم أو بقي "بدون جنسية" خاصة أنه كان أمير للحدود الشمالية الشرقية لسنين طويلة. بدا واضحاً ان الأمير لا يود الخوض في ذلك، لحساسية مسألة

التجنيس أو الاسترداد، فتدخل جالس آخر مبيناً ان بعض من حصلوا على الجنسية، في دول الشمال هم من أصول نجدية، ومنهم رهط من أقارب جد الإمام محمد بن سعود مثل الوطبان. لكن آخرون من العامة وبعضهم أشرار يدعون النسب لقبائل مثل المنتفق وقحطان وعنزة والظفير، وغيرهم من مجهولي الأصل يسمونهم "البدون" أو متعددي الجنسية، يزعمون سلطات الأمن والمراقبة بتجولهم بين الحدود الدولية وممارساتهم غير الشرعية. تحادث الأمير مع العم رشيد قليلاً ودعاه لزيارة الحريق، فقبل ذلك على ان تكون بعد انتهاء الطريق الذي ما زال تحت الإنشاء. رجل آخر من آل ثنيان عرفته بالسماع من بعض الزملاء، وشاهدته في لقاءات صناعية وسمعت عرضه لأفكاره المستتيرة، وأخبرني بعض الرفاق عن اسهاماته النشيطة والأمانة في الهيئة الملكية بالجبيل. لكنني لم أجالسه قط حيث كنت قد غادرت العمل الحكومي، بعد سنين طوال للتفرغ لأعمال الاستثمارية، التي كنت قد بدأتها على مبعده قبل ذلك. سرني للغاية ما أخبروني به عن نقص كبير في المعاملات المالية المشبوهة، التي نتأسف جميعاً لحدوثها في المرحلة الأولى للهيئة، فمع الاعجاب بالمنجزات الهائلة التي تحققت في الجبيل وينبع، إلا ان التجاوزات لا مبرر لها قطعياً.

أود ان ابين لكم أيها الأحبة لمحة عن مرحلة مغادرتي الخدمة العامة، ففي أواخر القرن العشرين بدأت التفرغ التام لأعمال الخاصة، والانسحاب التدريجي من المشاركة في العمل العام، لكنني تشرفت بزيارة من الأخ الفاضل المهندس سعد المعجل، الذي أصر ان استكمل بعض المهام في اللجنة الصناعية بالغرفة. لقد تركت اللجنة الزراعية والغذائية، وباشرت في مغادرة كافة الأعمال العامة الأخرى، لكنه أقنعني ان وجودي معهم في تلك المرحلة ضروري لمشروع أكبر مدينة صناعية (واستثمارية) ليس في المملكة فقط بل في المنطقة كلها. وهذه المدينة لي معها شأن خاص حيوي، فعندما التحقت بمركز التنمية الصناعية أواخر الربع الثالث لذلك القرن، كانت المناطق الصناعية الثلاث (جدة الرياض الدمام) في المراحل النهائية للتطوير، وتُجري البحث عن مناطق جديدة، حيث لاحظنا ان وجودها أدى إلى مفعول سحري، لتنشيط النهضة الصناعية في البلاد. كما أن تجارب الدول الأخرى النامية كانت مشجعة، حسب افادة اليونيدو شريكة المركز كما بينا في الصفحات السابقة. وكنا نطمح لوجود مناطق صناعية ثلاث كل منها يبلغ عدة ملايين من الأمتار، بدل من تلك القائمة آنذاك والبالغة كل منها نصف مليون م فقط. وقد تم ذلك فعلاً خلال الخمس سنوات التالية، إلا ان الفرصة العظمى جاءت بعد حرب رمضان 73م، فزاد سعر النفط بعد حظره عن أمريكا لمساعدتها العدو الصهيوني، لكن رئيسها آنذاك قرر عدم الرد على المقاطعة بعدوانية، بل بالتعاون الذي كان قائماً منذ نصف قرن. فجاء نكسون للسعودية في أول زيارة لرئيس أمريكي، وعرض على الفيصل تعاون لوضع خطط تنمية رشيدة، لا تهدر الموارد الضخمة التي هبطت على بلادنا في لحظات قصيرة، بل تبرعت حكومته

بإرسال خبراء على حسابهم، ولا تتحمل المملكة سوى نفقات اقامتهم وتنقلاتهم. لأمر ما قررت إدارة المركز ان أكون أحد المرافقين مع خبراءهم في المجال الصناعي، وشعرت ان علي التنازل عن بعض ميولي لأفكار الخواجات، لقاء سحب الخبرات الموجودة في أدمغتهم، بخاصة انهم موجودين في المملكة لأيام قليلة وعليهم العودة سريعاً لأعمالهم في الحكومة المركزية (الفدرالية) وقد أذهلتني الكفاءة العالية لمن عملت معهم، مقارنة بأولئك العاطلين الذين يطلبون العمل لدينا من أجل حفنة من الدولارات. لقد كانوا موظفين دائمين في بلادهم، وجاءوا في مهمة شرفية لدعم العلاقة بين الدولتين، وليس لهم أي مصلحة شخصية ومادية من تلك المهمة، بل الاطلاع على الأحوال في بلادنا وتقديم مقترحات تنموية قد يؤخذ ببعضها وترفض البقية. لقد أعجبت بصراحتهم ووضوح أفكارهم، وبعدهم عن الفكر اللئيم للبعض، ومحاولة "الاستنفاع الذاتي" لكن الفكرة الخارقة التي بدرت منهم، برزت أثناء زيارتنا لأرامكو ليومين فقط. والتي كانت آنذاك شركة أمريكية تملكها اكسون وشيفرون وتكساكو وموبيل، قبل ان تشتريها المملكة على مراحل، ففي اليوم الأول تحدث أحد الخبراء عن تخصصنا في الصناعة، فقال انهم تلقوا معلومات غير متناسقة من مراجعهم قبل مغادرة واشنطن. فقيل لهم ان المراجع العليا من وزراء أو جهات أخرى، في السعودية وأمريكا لديها فكر مختلف بشأن الصناعة، ففي حين ترى واشنطن أهمية التطور الصناعي، حيث الدول المتقدمة هي الصناعية، فإن السعودية ترى ان الصناعة قد تخلق فكر مضطرب لدى العمالة التي تميل للمعارضة والإضرابات! ولما تساءلوا عن تجربة أرامكو مع العمالة السعودية، اشادوا بقدراتهم وبيئوا ان البعض قد التحقوا بها لا يجيدون القراءة، وليس لدى معظمهم أي خبرة في تشغيل المعدات، وفي خلال سنوات قليلة أصبح أكثرهم يحسنون الكتابة، ليس بالعربية فقط بل بالإنجليزية أيضاً، وآخرون اكتسبوا مهارة تشغيل وصيانة المعدات الميكانيكية. ضربوا مثال على ذلك العليان الذي التحق بالشركة، كموظف صغير وخلال فترة قصيرة طور قدراته، ثم غادرها ليعمل مقاول فاز بعقد انشاء خط الأنابيب، وصار الآن أحد كبار رجال الأعمال في الرياض. تساءل الخبراء عن الأفكار اليسارية لدى العمال، وما إذا يحتفلون بعيد العمال في مايو (للسويوعيين) أو في سبتمبر (للرأسمالية) فسارعوا بإيضاح ان السعوديين لا يحتفلون بأي عيد سوى ما في الشريعة المحمدية، وهم يبنذون الفكر الاشتراكي لأنه من الشرك، وفي العقد السابق كانت هناك أفكار قومية لدى القلة، نتيجة الدعاية الناصرية المرتكزة على أقوال (الأنتي رويالست) لكن ذلك زال في نهاية الستينات. ثم ختم حديثه بالقول ان الشركة لديها نظام ثلاثي للعاملين، حيث توجد تعليمات لدول جنسية ملاك الشركة (الأمريكان) وثاني لمواطني الدولة المضيفة (سعوديون) وثالث هو (تي سي إن) لغيرهم، وانه لا يعرف تفاصيل عن تقييم الأداء لكل مجموعة. واقترح ترتيب موعد لنا مع الإدارة المختصة، لكن الخبراء الوافدين لم يروا أهمية ذلك، أما رفيقنا السوداني من إدارة العلاقات والمعلومات في المركز، فقد تأفف من أسلوب التمييز العنصري ذلك. لما سألوهم عن مقترحاتهم لمشاريع صناعية جديدة، قالوا انهم في أرامكو

محكومين بأمرين، أولهما عقد الامتياز مع المملكة الذي يحصر نشاطهم في استخراج وتكرير النفط وتصديره. والثاني هو اعتراض حملة الأسهم للشركات الأربع مالكة أرامكو، على النفقات الرأسمالية الكبيرة إلا إذا كانت تحقق عوائد عالية، تغطي مخاطر الاستثمار في الشرق الأوسط. بخاصة بعد تفجير خط أنابيبنا في حرب عام 56م، ثم حظر النفط المحدود أثناء حرب 67م، والحظر الموسع المؤلم في العام السابق. رغم بغضي الشديد لسماع "مجاغة الخواجات" إلا ان النقاش كان يبدو متوازنا، كما كنت أؤمن عالياً ذوي العلم والخبرة، وكنت أعد نفسي للسفر لأمريكا التي وضعت أول رجل على سطح القمر قبل خمس سنوات. لذلك تدخلت في الحديث عما قاله والدي لأرامكو، لما زارهم قبل نحو عشرين سنة، بشأن الحرائق الهائلة في حقول البترول، حيث ترتفع أسنة الذهب في السماء تلوث الهواء، وتتلف ثروة هائلة يمكن الاستفادة منها. تبسم كبير الحاضرين وخاطب بني جلدته، بالقول ليس والد هذا الشاب إلا واحد من آلاف ينفدون هذه الحرائق كلما زارونا، وليس ذلك قاصراً على العرب بل أطفال أمريكا الذين يزورون قرابتهم في الشتاء، يوبخوننا لترك أسنة النيران ترتفع في السماء مهددة الموارد الثمينة. بل تجاوز الأمر إلى حد الشكوى منها بواسطة أحد رواد الفضاء، الذي يدور بمركبته في تجارب الوصول للقمر قبل عشر سنوات، وأصر على سرعة تنبيه السلطات السعودية، عن ذلك الحريق الهائل والأدخنة في شرق البلاد، ووجوب اتخاذ الإجراءات لإطفائها وانقاذ المصابين! ثم أفادونا ان الاستفادة من الغاز المهدر الثمين، تتطلب استثمار مليارات الدولارات في مشروع صناعي ضخم، وقد أعدت أرامكو كافة دراساته ومخططاته التنفيذية، ويسمى (قاز قاذرينق بروجكت) جي جي بي، ويتكون من أنابيب ومنشآت تجميع الغاز المصاحب للنفط، من جميع الآبار في البر والبحر، ثم نقلها لوحدة المعالجة للتخلص من الشوائب فيها، مثل الكبريت الذي يتلف المعادن، وخزانات ضخمة لحفظ الغاز في أمان، لحين نقله إلى مصانع البتروكيماويات، التي تقوم بتحويله إلى أسمدة أو أقمشة أو مواد تغليف، وبلاستيك وإطارات ومنتجات أخرى لا حصر لها. وهناك مشروع آخر عملاق هو (أنبوب شرق غرب) حيث سينقل ويعالج النفط والغاز، من حقول الاستخراج قرب مقرنا (الظهران) لمنطقة تبعد عن جدة نحو 150 كم. بين زميل له أنه فور انتهاء الحرب العالمية الثانية، خططوا لجعل السعودية من أكبر مصدري البترول في العالم، حيث الآبار غزيرة الإنتاج والتكلفة زهيدة، لكن المعضلة هي مضيق هرمز حيث لا بد ان تمر كافة الناقلات عبره، وهو تحت سيطرة جهة لا تتعامل بمودة مع السعودية منذ زمن بعيد، لذا عمدت الشركة للبحث عن منفذ رديف، فقررت إقامة خط الأنابيب عبر البلاد العربية (ترانس اراب بايب لاين) تاب لاين، لنقل البترول من بقيق إلى فلسطين، لتحمله السفن من هناك نحو موانئ أوروبا. وتحملت الشركات المالكة لأرامكو كامل تكلفته، بل ونفقات مراكز التحكم والمراقبة عبر تلك البلاد، وأقامت فيها الطرق ومراكز طبية وتعليمية لخدمة القرى التي يمر بها، لكن الحرب بين العرب واليهود عام 1948م عرقلت إتمامه. فقررنا تغيير المسار من فلسطين نحو لبنان، وفي علم

1956م نشبت حرب السويس، وقام السوريون بنسف الخط وتكرر الأمر في عام 67 وهو الآن شبه معطل. مما جعلنا في وضع حرج، حيث لا منفذ للنفط السعودي من رأس تنورة سوى عبر هرمز. وحملة الأسهم في أمريكا ليسوا في مزاج لإنفاق مليارات على خط جديد، خاصة بعد حظر البترول في السنة الماضية، حيث قاسى الأمريكيون شدة البرد من نقص وقود التدفئة، وانسدت الطرقات لتعطل السيارات لنقص وقود الجازولين (بنزين السيارات) كما يسميه البعض. لكن إدارة أرامكو استمرت في الشعور بخطر الاعتماد على مضيق هرمز الإيراني كمنفذ وحيد، على أمل ان زيادة أسعار البترول الهائلة قد توفر سيولة كافية لسد أكثر نفقات الطرق البديلة. لما سألناهم عن تفاصيل ذلك قالوا إنها لدى قسم آخر، لن يمكن ترتيب لقائهم إلا ضحى الغد، لما ذهبنا إليهم في مبنى آخر داخل مدينة أرامكو المتسعة، وجدنا فريق عمل مهتم وقد أعد لنا تقارير وخرائط، وفهمنا ان القنصلية الأمريكية في الظهران أوصتهم بالتعاون التام مع فريق واشنطن، بما يضمن توفير معلومات كافية لإعداد معالم طريق التنمية للمملكة خلال السنوات التالية. سارعوا لإيضاح ان جهة التعامل الرسمية لهم هي وزارة البترول والمعادن، التي بدورها فوضت مؤسسة بترومين لتتولى تنسيق كافة الأنشطة، وسارع رفيقي السوداني بإيضاح البديهييات، مبيناً ان مركز التنمية الصناعية هو المفوض من وزارة التجارة والصناعة، فكرروا الترحيب وبدأنا النقاش حول الاستثمارات المستقبلية الواعدة.

قالوا ان الاستثمارات في مجال الاستكشاف والتنقيب والاستخراج، ثم المعالجة والتخزين والتصدير، تنفق عليها الشركات الأمريكية المالكة لأرامكو، وليست محل البحث مع جهات أخرى. لكن لديهم قطاعين هامين للمشاركة، أولها تشييد منطقتين صناعيتين إحدهما شمال الدمام والأخرى شمال جدة، بنحو 100ميل لكلا منهما. في الأولى تقام معامل للاستفادة من الغاز المهدر حرقاً آنذاك، وذلك بإقامة مصانع للأسمدة والبلاستيك وغيرها من مشتقات غازي الميثان والإيثان، كما اقترحت بترومين خطط خمسية للاستفادة من خامات البوكسيت والفوسفات في شمال المملكة، حيث يحتاج اختزال الألومينا لكميات هائلة من الوقود الذي يحرق في الهواء الآن، لكن السنين تمضي ولم يتم شيء. أما الثانية فستكون نهاية أنبوب ضخ، بديل لخط التابلاين ينقل البترول الخام من الشرق للغرب، وتقام منطقة صناعية لمعالجة النفط والغاز المصاحب، وفرضة لتعبئة السفن من ساحل البحر الأحمر، كبديل للمرور من مضيق هرمز الإيراني. تساءل أحدهم عن جدوى ذلك ما دامت قناة السويس مقفلة منذ سنوات؟ وهل مضيق باب المندب أكثر أمناً من هرمز؟ أجابوه ان قسم العلاقات الدولية حذر من أطماع للشاه، للحصول على إيرادات من السفن المارة في المضيق، غير عابئ بتحريم فرض رسوم مرور في الممرات الطبيعية. كما أنه وجه الجزء الأكبر من زيادة إيرادات النفط، لشراء أسلحة متطورة لإحكام سيطرته على المنطقة. وقد تبين ذلك من تدخله لمنع دخول البحرين ضمن اتحاد مشيخات الساحل المتصالح (الإمارات المتحدة

حاليا) مما أدى لزيادة التنافس بين قطر والبحرين القائم منذ عشرات السنين. كما أعلن رفضه انشاء خط أنابيب للنفط، يمتد من الكويت حتى عُمان مما تسبب في الغائه، مع تزايد المؤشرات على خطئه لفرض سيطرته على ضفتي خليج فارس! تساءل أحد خبراء إدارة الصناعة في الحكومة الامريكية، عن جدوى إنشاء ذلك الأنبوب مقابل نفقاته الباهظة، فأجابوه إنه بوليصة تأمين في حال قفل هرمرز، وحتى لا تخرج السعودية من سوق النفط. لكنه عاد للاستفهام عن البديل الموجود في غرب تكساس، وهو السكة الحديدية التي يمكنها نقل النفط بعيداً عن فارس في صهاريج ضخمة، كما تنقل البضائع والركاب في الاتجاهين؟ فردوا عليه انهم شركة زيت النفط، والأنبوب أكثر جدوى من السكة الحديد لهذه السلعة، أما تأسيس خط قطار لأغراض أخرى فخارج اختصاصنا. ثم أضاف زميله ان هناك هيئة للسكة الحديد السعودية، وتمر قطاراتها داخل منطقة بقيق ولم نستطع الاستفادة منها، حيث السكة بنيت لأغراض مدنية أخرى ولا تتحمل الصهاريج الضخمة. أما قطارات غرب تكساس فبنيت في القرن الماضي، بتكلفة قليلة ودعم حكومي قوي، ومع هذا هناك توجه حالي لبناء شبكة أنابيب، تنقل البترول من حقول تكساس واوكلاهوما (تولسا) ونتوقع اندثار تدريجي لنقل البترول بالقطار خلال العقود القادمة.

تداولنا أيضاً صعوبة اختراق التلال غرب الرياض، والجبال شرق جدة والنواحي الأمنية للبدائل. ثم تباحثنا حول القطاع الثاني، وهو مشروع تجميع الغاز المصاحب للزيت، المسمى (قاز قاذرينق) من كافة حقول النفط في البر والبحر، وبدلاً من احراقه في المواقع يتم تجهيزه ومناولته للمشاريع الصناعية المحلية التي تستفيد منه، لكنه مكلف ويتطلب عدة مليارات من الدولارات، وعند بدء تخطيط ذلك المشروع قبل سنوات، كانت كل إيرادات السعودية من البترول لا تتجاوز مليار واحد، والشركات الأمريكية المالكة لأرامكو "غير راغبة أو قادرة" على تمويله. بعد النقاش المستفيض طلب الخبراء مشاهدة التقارير والخرائط، فأخذونا لغرفة جانبية بها الكثير من أرفف الأوراق، وقالوا ما يتوفر حالياً هو مطبوعات ورسومات أولية (بلو برينت) مازالت تحت التنقيح. لفت انتباهنا جميعاً (القادمون من الرياض) خريطة توضح ما سموه ممر التطور "كوريدور التنمية" أو الدهليز، الذي يمكن ان يكون في جنباته العديد من المرافق السكنية والخدمية والاستثمارية. كان ذلك الخط يبدأ من شمال مكاتب أرامكو في الظهران، قريباً من البئر المباركة (رقم 7) حيث تدفقت أول بشارات الثروة، بعد سنوات من الإحباط والفشل، حتى كادوا يغادرون البلاد مكتفين بما أصابهم من خسائر جمة. ثم يمتد الدرب صاعداً حتى الرياض، وينحدر بعدها غرباً نحو عالية نجد، حتى ينزل جبال الحجاز شمال الطائف، ثم يشق سهول تهامة حتى الساحل. مما لفت الانتباه في ذلك هو دائرتان شمال جدة والدمام، رسمتا بحبر أحمر وقال أحد منسوبي الشركة، ان الأولى تبعد نحو مائة ميل شمالاً ربما ستكون قرب بلدة الجبيل التاريخية، وتقام فيها منطقة للصناعات البترولية والمعدنية تابعة لبترومين. والثانية أصغر منها شمال جدة

حيث مرفأ تصدير النفط، ومعامل تكرير وصناعة وتخزين ومرافق. الكبرى مساحتها نحو 12000 هكتار أو أكثر، وستحتوي كافة الخدمات المساندة للمشاريع المقترح اقامتها، ولما دقت في الخريطة تبين لي ان تلك المنطقة هي رابع، التي كان بعض ربابنة السفن التي تحمل حجاج مصر وتونس والشنقيط، يعتبرونها ميقات الإحرام والصحيح ان الواجب الإحرام شمالها عندما يوازن الجحفة. لقد سمعت مداولات في مجلس والدي رحمه الله (1378هـ) عن ميقات حجاج البحر، القادمين من السويس في سفن متهالكة زهيدة الأجرة، يقودها سفانة يونان لا يعلمون شيء عن المناسك، وقلة منهم يصاحبهم من لديه المام بذلك. في السنين التالية قام شخص اسمه لاتسييس بتوفير سفن أقل سوء، كان على علاقة طيبة مع ملكي المغرب وليبيا، ثم مع الملك سعود وعبد الناصر يذكر لهم حبه للعرب، الذين عانوا مثل شعب اليونان من الغطرسة العثمانية في القرون السابقة. كما ورد ذكره في المجلس مطلع عام 1965 م، حينما أكد بعض منسوبي السفارة في مصر، انه كان مع أولاد الملك سعود في استقباله بمطار أثينا، بعد ان غادر البلاد على أثر تنازله عن الحكم، ووفر للملك تجهيزات فاخرة للإقامة والطبابة. فقد كانت له علاقة جيدة مع الملك، لما غضب من أرامكو لرفضها تقديم المزيد من القروض، وعرض المساعدة باستخدام بعض ناقلاته لشحن النفط من رأس تنورة، والحصول على إيرادات إضافية. لكن رغم علاقته مع ملك اليونان فإن امكانياته هو وصديقه اللدود أوناسيس (زوج أرملة الرئيس كنيدي) متوسطة، مقارنة بإمكانيات الأمريكي بول جيتي الذي حصل من سعود، على امتياز النفط في "محايدة الكويت" لكن بمجرد الخلع نفض يده من العلاقة، واستمر يحقق الملايين من استخراج وبيع النفط من تلك المنطقة. الذي أثار دهشة بعض رفاق والدي ان لاتسييس، انشاء علاقة وطيدة مع الملك فيصل، الذي لا بد أنه أكبر فيه وفائه وشيمته وكرمه، حيث حصلت احدى شركاته (بترولا) على ترخيص الاستمرار في شحن وتوزيع الوقود بالمملكة.

وإذا عدنا لغرفة الرسومات في أرامكو، حيث كنت في صحبة وفد من خبراء أمريكيين، في الحكومة الفدرالية (الاتحادية) حسب اتفاق الفيصل مع نيكسون، الذي كان آنذاك (منتصف 1974م) يتخبط في ملابسات فضيحة ووتر جيت، التي ألزمتها على الاستقالة بعد فترة قليلة. قال أحدهم لزميل أصغر منه ان عليه النظر للخريطة، بعين العصفور الطائر عالياً، كما كان يفعل وهو ينظر من طائرته الحربية أثناء الصراع في كوريا، فرد عليه ان ذلك كان في فترة شبابه قبل ربع قرن، ثم أخذ يستدير حول المنضدة ويدقق في الرسم من زوايا مختلفة، ثم صدم الجميع بأن السعودية تبدو له كأنها وجه انسان، ورامكو رسمت له عينان واقترح ان يكون له أنف، ثم قطع الزاوية العليا من دفتر الأوراق الصفراء، التي يعشق الأمريكيون تدوين ملاحظاتهم فيها، ووضع ذلك المثلث الورقي في وسط اللوحة. تبسم الجميع وجرى تداول الأفكار بتعبير راقى وواضح، ولما حان دوري لإبداء المرئيات بينت انني قبل أيام كنت أشاهد فيلم في صالة العرض يقال له أنف وثلاث عيون. قاطعني أحدهم عما إذا توجد في

الرياض دور للسينما، فأجبتة ان مبنى المركز حيث أعمل، توجد به قاعة محاضرات تتسع لأكثر من خمسين شخص، وفي الطابق الثاني غرفة اسقاط ومراقبة بها جهاز عرض أفلام (بروجكتور) وكل أسبوع يقام لقاء مسائي للعاملين، وقد شاهدت فيلم (جاءوا للسطو على لاس فيغاس) قبل شهر، وأثبتت على خالقي أنهم لم يسألوني عن كيفية الحصول على الأفلام؟ وتعلمون أيها الحبة أنه أثناء زمن المنع آنذاك، كانت الخرائب الطينية الواقعة جنوب سوق المربع للسّمك، تؤجر بكرات الأفلام سواء الحسنة أو البديئة! وعدت فوراً للحديث عن اقتراح الأنف فأيدته بحماس منقطع النظر. قلت ان هذه المنطقة الصناعية في وسط البلاد، على مسافة تقل عن مائة ميل شمال الرياض، ستوفر مرافق جيدة لنهضة قوية للاستثمارات، وبيّنت كيف اننا في المركز نعاني من عدم توفر أرض لمنطقة صناعية ثانية، حيث امتلأت الأولى التي مساحتها نصف مليون متر، مستأجرة من السكة الحديدية وسيشغل المبنى الجديد للمركز جزء منها، وأوضحت ما لاقيه من عقبات لمحاولة تدبير ذلك، بقرب حدود مخطط دو كسيادس الذي بيّنت لكم في الصفحات السابقة شيء منه. بدا على منسوبي أرامكو شيء من التذمر، نحو اتجاه الحديث لحدود لا يرغبون تجاوزها، ولما قلت ان الأمر قد يتطلب مع الأنف المقترح خمس عيون زاد تمللمهم، ورغم عدم رغبتني تكدير خواطر مضيفينا إلا أنني اعترضت على ما سموه درب التنمية، واقترحت ان يكون خط واحد من الدمام للرياض، ثم ينقسم إلى ثلاثة فروع مثل دلتا الميكونج. أحدها يخرج باتجاه الشمال الغربي نحو القصيم ثم المدينة المنورة وجماميد الشمال، والثاني يذهب غربا نحو مكة المكرمة وجدة والشعبية ورابع، والثالث ينحدر جنوب غرب لأبها ونجران وسواحل صيبا. أشاد الطيار المتقاعد بذلك وأوصى بإدراج الاقتراح في التقرير، لكن كبير الخبراء أشار بيده ان ذلك يستحق النظر، ولا بد من دراسته مع السفارة في جدة قبل التوصية به. عندها استشاط كبير موظفي أرامكو الحاضرين معناه، وأكد ان شركته لا علاقة لها بمثل تلك المقترحات التوسعية، وهناك مراحل نهائية لأول خطة خمسية للسعودية (1390-95هـ) ولا يؤيدون تجاوز ذلك حالياً. بإشارة من يد الخبير ساد الصمت، ثم أوضح للجميع انهم ليسوا بحاجة للتنمية على مرئيات أولية، وما يجري حالياً هو "تفكير مسموع" حول ما هو أكثر فائدة للتنمية، حسب ما وجهنا به مدراءنا الذين التزموا بتوجيهات الرئيس الأمريكي والملك السعودي. وإذا كان بعض منسوبي أرامكو يودون المشاركة في "العاصفة الفكرية" فذلك محمود، وعلى كل حال سنكون في القنصلية الأمريكية لمراجعة بعض الأمور معهم، ونحن لم نطلب من أحد تجيير ما نقترحه (إنورس) أو رفضه، ونتفهم ان أرامكو شركة بترول فقط تهدف لزيادة الربح! أما نحن فمختصين في التنمية الاقتصادية، التي لا تشمل الصناعة وحدها سواء كانت وقود أو طعام أو ملابس، بل تشمل الزراعة والتدريب المهني، بل وصناعة الترفيه والسياحة، بدا على طاقم الطرف الآخر بعض التفهم. مما شجع أحدهم لطلب خريطة أخرى، تبين مواقع المدن والقرى السعودية، فأشاروا إلى سكرتيرة تجلس معهم لإحضارها من المكتبة، فهرولت مسرعة وهي قد تجاوزت منتصف العمر، عليها

مسحة من جمال غابر تنتعل حذاء كعبه عالي، وتشد جونلتها (تنورة) القصيرة كاشفة ساقها ونصف فخذها، وعلى وجهها كم هائل من المساحيق والأصباغ. وعادت سريعاً بالخريطة التي استخدمنا عليها مقياس الرسم، لنحدد الموقع على مسافة تقل عن مائة ميل شمال الرياض. تبين أنه غرب تلال العرُمه قرب تمير، فقلت في نفسي تلك بعون الله "منطقة الخير" الجديدة، ولم يكن آنذاك طريق القصيم يمر جوارها، بل من الدرب المؤدي لصلبوخ ثم المحمل والوشم. دعونا لغداء مبسط رتبوا له في مطعم كبار موظفي الشركة، وهناك شاهدت قلة من السعوديين مع زوجاتهم غير المحجبات، من بينهم شخص درس معنا في الجامعة لسنتين ثم اختفى، وتبادلت معه حديث موجز عن عمله في الشركة، فهمت منه أنهم صارمون للغاية في التزام كل شخص بمجاله المحدد. أثناء الطعام سألت أحد منسوبي الشركة عن تفاصيل الاتفاق، بين الملك والرئيس حول التعاون الاقتصادي، ولم يعلموا الكثير عنه حيث إنه يحدث لأول مرة. لكن كبير خبراء الصناعة قال له لقد سبق ذلك في عدة دول، منها تايوان والبرازيل وفنزويلا، لكن أضخمها كان مع اليابان بعد هزيمتها واحتلالها، حيث رأى الجنرال ماك آرثر (1946م) أنها لن تتمكن من النهوض من رماد الحرب والقصف بالقنابل الذرية، إلا بدعم فكري وعملي أمريكي. لذا أقنع ترومان بإنشاء لجنة تعاون اقتصادي معهم، وقد عمل على التعاون مع البيوت الصناعية التجارية اليابانية متسوي وماتسوشيتا ومتسوبيشي والشركات المتوسطة الواعدة بتوفر القدرات لديها. ومن ذلك شركة تويوتا للنسيج والسيارات، التي تعاونت مع شركة السيارات الضخمة كرايزلر، وطورت التصاميم القديمة لمركبات وشاحنات تويوتا، لتصبح أعلى كفاءة وأقل كلفة، وها هي الآن (74م) تنتج ملايين السيارات الجيدة والرخيصة، وتنافس الشركات الأمريكية في عقر دارها. وأما شركة سوني للإلكترونيات فقد جرى ترتيب تعاون لها مع شركة الهاتف (بيل) الأمريكية، التي اخترعت الترنزيستور في نهاية الأربعينات، الذي غدا بديل لمصابيح دوائر الراديو والتلفاز، مما ساعدها على تطوير أجهزة أخف وزناً، وتستهلك كهرباء أقل وسعرها منخفض وكفاءتها عالية. عارضه أحدهم إن مثل هذا التعاون يسيء لبلادنا، فرد عليه بل إن فيه مصالح متبادلة للطرفين، فلولا ذلك لما تمكنت مصانع السيارات لدينا من الصمود أمام المنافسة الأوروبية الهائلة، بسياراتها ذات الجودة والأمان العالي والتكلفة غير الباهظة. كما تم تطوير الصناعة الإلكترونية في أمريكا بذلك التعاون، واخترنا الليزر (هيويز) في مطلع الستينات.

أخذونا بعدها لمبنى "العقل الإلكتروني" الذي زرته قبل ثلاث سنوات، وبينوا لنا القدرات الفائقة لأحدث جهاز لديهم (أي بي إم 370) الذي يمكن الآن لجهاز الهاتف الجوال في جيوبكم أيها الأحبة، أن يقوم بعمليات أكثر وأسرع منه فسبحان من علمنا ما لم نعلم. أمضينا مع الرفاق القادمين من واشنطن، المساء في الفندق الجديد الفخم (القصيبي) والواقع على شاطئ الخليج، مقارنة مع الحاجة القديم والأقل رفاهية، ولما زرت الخبر بعد سنوات أحزنتني رؤيته وقد غدا بعيداً عن الساحل بسبب التعدادات! لن

أنسى الانسجام بيني وذلك الخبير الصناعي الأمريكي (الطيار) الذي أوصى بإضافة أنف في وسط السعودية، ليوافق بين المنطقتين الصناعيتين في شرقها وغربها. فقد كان حاد الذكاء بعيد الرؤية لطيف المعشر، رغم غرائب بعض تصرفاته العفوية، ومنها أنه أثناء سيرنا في ممرات الشركة، كان يمشي للوراء قائلاً لي إنه بهذه الطريقة، سيتعرف بسهولة على درب العودة للمدخل، رغم ما يؤدي إليه ذلك من إرباك الآخرين. كما أنه لما عرف عن عزمي على السفر لأمريكا، لدراسة الماجستير في دودج سيتي اعترض على ذلك، وأوصاني للبحث عن جامعة في منطقة شمالية، حيث إن ولاية كانسس رغم أنها ليست في الجنوب المتزمت (الاباما) إلا إن بعض الناس فيها متعصبين للعنصرية. أوضحت له إن هناك عاملين يؤثران على فكري، الأول إن مبادئ المجتمع العظيم التي بدأها الرئيس كنيدي، وأكملها نائبه جونسون تمنع التفرقة العنصرية، وثانيها أنني لست زنجي ممن يتعرضون للتمييز البغيض. فنبسم وقال لي إن القوانين على الورق، تمثل حماية جيدة من العدوان السافر، أما المنغصات اللحظية الشخصية فيصعب تلافيها، وأكد إن الجامعة بعينها لا غبار على مناهجها العلمية، لكن الأفضل تحاشي أي موقف مسيء من أحد السوق (رد نكس) لذا فيقترح التوجه لجامعة في الشمال الرزين. اقترح ولاية بنسلفانيا المعروفة بجامعاتها الراقية، بل إن بعض الأساتذة فيها يقودون طائراتهم الشخصية، ويحضرون إلى واشنطن للمشاركة في بعض دراسات ومشاريع الحكومة الفدرالية (المركزية) عدة مرات في الشهر، كما إن المدن الجامعية (كمبس) فيها ذات مستوى اجتماعي مرموق. ثم عاد لابتسامته وقال أمل إن لا تصدم إذا ذهبت للمناطق الانفصالية الجنوبية (ديكسي) وتظن إن التمييز العنصري ضد الزنوج فقط، بل إن البلهاء يمارسونه ضد كل من هو ليس من أصول قوقازية، وبشرته ليست فاقعة اللون. فسكان الشرق الأوسط القمحيو البشرية، والأسويويون الصفر واللاتينيون ذوو البشرة البنية، وأهالي شبه القارة الهندية السمر كل هؤلاء وغيرهم يعتبرون من الملونين، ولا يود المتعصبون إن يقتربوا منهم! لما عدنا للرياض سارعت بإعداد تقرير لرؤسائي في مركز التنمية الصناعية، ركزت فيه على أهمية المنطقتين الصناعيتين المقترحتين في شرق وغرب المملكة، ومقترح أحد أعضاء فريق التعاون الأمريكي بإضافة ثالثة في وسط البلاد، وأهمية تأييد تلك الفكرة وتبني المركز لإقامة منطقتين إضافيتين إحداهما في الشمال والأخرى في الجنوب. وكنت أظن إن إدارة المناطق الصناعية الثلاث، لدينا في المركز هي الجهة ذات المعرفة والممارسة، والأحق بأن تتولى الإشراف على المناطق الصناعية الجديدة. اندهشت من الفتور تجاه تلك المقترحات، ولما وانتنتي فرصة لقاء المدير الأعلى للمركز، الذي كنت أحس بمودة خاصة منه نحوي، اعتقدت إنها بسبب معرفة قديمة بين والده ووالدي، لكنه فاجأني بتوصية لصرف النظر عن ذلك، ولما شعر بخيبة أملي واساني بالقول إن معالي الوزير (العوضي) هو المختص بذلك، وإنني سأعلم بعد فترة عن أمور مغيبية! ذهب وفد الخبراء إلى جدة ولم أرافقهم، حيث انشغلت بالبحوث التي تعطلت أثناء سفري معهم للدمام، كما كانت استثماراتي الخاصة (الصغيرة) تشغلني

كثيراً، أما مسألة الزواج والبعثة وأمريكا فقد أخذت بلبي. بعد أيام جلس معي أحد قدامى زملاء في المطبعة، وهو من الحوطة ويكلفونه بمتابعة بعض شئون مجلس الإدارة، وقص علي ما يوجد من احتقان وتحسس مع بترومين، التي منذ فترة صار محافظها يتغيب عن حضور الجلسات، ويفوض أحد موظفيه لحضور مجلس إدارة المركز، التي يفترض ان لا يحضرها إلا من يتولى مهام منصبه في غيابه، وليس أحد العاملين في معيته. فهتمت من زميل أقدم مني ان بترومين ترى ان كافة الصناعات الثقيلة والأساسية ضمن اختصاصاتها، وان المركز ومناطقه الصناعية يقتصر دوره على المنتجات الاستهلاكية والخفيفة فقط. في تلك الحقبة المضطربة رأيت بعض قيادات البلاد "دكترة العمل" الحكومي، للنهوض به ليتماشى مع تضخم الإيرادات، فتوجهوا للجامعات وجلبوا بعض المدرسين منها لتولي المناصب، وكان أول من حصل على الدكتوراه في التاريخ هو الخويطر، ذو الأدب الرفيع والأمانة والحكمة الإدارية، فنقل من رئاسة جامعة الرياض لكرسي الوزارة فأحسن الأداء رحمه الله. ثم توسعوا في الأمر وسمعت بيان في المذيع ان أستاذه السابق، القصيبي قد أسندت له إدارة السكة الحديد، التي قال عنها في قصيدته انها ذات السير الوئيد! وهو ما لا يتفق مع ما ذكره لي أثناء المجادلة حول البعثة والكرسي الدوار والحاجب الكليم، عن ترشيحه كنائب وزير الداخلية أو وزير البترول، لكن ما سمعته في مجلس والدي آنذاك، ان الملك وعمه الأمير مساعد لم يتحمسوا لدكترة الوزارات سريعاً. كان الضغط هائلاً على مدير المركز ورئيس مجلسه (وزير التجارة) لتلبية الطلبات المتزايدة على الأراضي الصناعية، لإقامة منشآت انتاج متطلبات بناء المنازل الجديدة، في ظل توسع القروض العقارية والنقص الشديد في المساكن، بعد جلب أعداد كبيرة من الموظفين، لمتابعة توسع الأعمال أثناء الطفرة الهائلة في دخل البلاد من النفط. كان مخطط دو كسيادس لتطوير الرياض، يتوقف جنوب مصنع الإسمنت، الذي تحيط به الكثير من المستودعات والورش العشوائية، لكن على بعد بضعة كيلومترات توجد أراضي خالية، تتبع حمى سكة القطار ويمكن الحصول على ملايين الأمتار منها بإيجار زهيد طويل الأمد، أسوة بما تم في أرض المنطقة الصناعية الأولى.

بهذا نكون قد أنهينا الحديث عن الشخصية الأولى في فتح الرياض، على يد الإمام فيصل بن تركي عند عودته من مصر، ومقاومة ابن ثنيان لدخوله إليها، وجود شخصيات هامة شاركت في حصار الرياض ثم دخولها عام 1259 هـ، ومنهم السديري وبعض آل رشيد. وفي الفصل التالي سأستعرض لكم أيها الأحبة، الدور الذي قام به أحمد (الكبير) السديري، ورجال من آل رشيد أعوان حاكم حائل في ذلك الحين، لمساندة الإمام فيصل في استعادة الحكم ثم توطيد أسسه.